حياة امرأة

٨ قروش

الترجمة الكاملة لأقوى
قصة طويلة كتبها

جي دي موباسان

مطبوعات
كتابي
يصدرها حلمي مراد

..انها أعظم قصة فرنسية بعد "البؤساء"! تولستوي

جي دي موباسان

حياة امرأة

UNE VIE

كتابى

ملاحق خاصة تصدر عن « كتابى » فى المناسبات ، متضمنة ترجمة كتاب طويل كامل من الكتب العالمية الممتازة ، القصصية وغير القصصية ، فى كل موضوع ، لأعظم المؤلفين

يصدرها : حلمى مراد

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب الخامس

ترجمه : محمد بدر الدين خليل　　　وراجعه : حلمى مراد

الادارة : عمارة الجندول ، ١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦ ، ٦٥٦٠٨

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن ثمانية وثلاثون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وفيما يلى قائمة الكتب التى صدرت :

خطايا الحب وكتب أخرى . قلب عذراء . الهاربة من الجنة . حواء الجديدة . أحدب نوتردام . جريمة حب . عشيقة نابليون . مذكرات كيوبيد . صنم تحطم . حديقة الله . عندما تحقد المرأة . لعبة الحب والموت . توبة خاطئة . أيها الربيع ترفق . الشيطان على الارض . ليدى هاملتون . الارملة المرحة . حياة جورج صاند . حياة سارة برنار . رباعيات عمر الخيام . حياة بيتهوفن . حياة موسولينى . كوخ العم توم . الزوج والعشيق . البوهيمية . فتاة لها ماض . ترويض النمرة . فن الحب . الجريمة والعقاب . المنافق . أميرة مصر . الامطار . افروديت . أقنعة الحب السبعة . سالومى . العدد ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨

◆ وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الاول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص اجر البريد المسجل ، ما عدا العددين العاشر والعشرين ، وثمن كل منهما ٢٠ قرشا . والاعداد ١٣ ، ١٦ ، وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا . أما الاعداد الستة الاولى فقد نفدت ، والادارة مستعدة لشرائها .

◆ الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا ، وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن : ما يوازى ١٣٠ قرشا مصريا ، وفى الحجاز ١٦٠ قرشا .

◆ ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على احد بنوك القاهرة او بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد MONEY ORDER

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الابيض ، الخالدون ، الخاطئة . وثمن كل من الاول والرابع ٢٠ قرشا ، والثانى ١٢ ، والثالث ١٠ (خالص البريد المسجل) .

هذه القصة

عزيزى القارىء ..

◆ عندما فكرت فى أن اقدم لك هذه القصة ، واجهتنى عقبتان : اولاهما انها ، برغم واقعيتها الصارخة ، قد كتبت بلغة القرن التاسع عشر ، التى كان لا يزال يغلب عليها الميل الى الاغراق فى الوصف ، وتصوير الاجواء والمناظر بكافة دقائقها وتفصيلاتها التى تدمجك فى محيطها ، بحيث تحس كأنك «تراها» بعين الخيال ، وتعيش فيها ! .. وهذا الاسلوب الوصفى ، رغم روعته ، قد بعد عهد القارىء العربى العصرى به منذ طغت على ميدان النشر الادبى موجة الادب « الصحفى » ، الذى يقتصر على تقديم أحداث القصة ووقائعها ، دون سياقها الوصفى المطول .. ومن ثم خشيت أن يدركك الملل عند قراءة هذا النوع من القصص ، ولا سيما فى الفصول الأولى منها ، التى تغرقك فى بحر من الاوصاف والتفصيلات ، قبل أن تدخل بك فى صميم الموضوع القوى الشائق الذى لا يلبث ان يستأثر بعد ذلك بتفكيرك وانتباهك ..

على أن هذا الطابع الوصفى بالذات ، فى القصة ، كان من الدوافع التى رجحت عندى كفة اختيارها ، اذ ما أحوجنا فى هذا العصر المادى البغيض الذى نعيش فيه الى أن ننسى أحيانا هذا العالم المضطرب الذى ندور فى دوامتـه ، ونكر عائدين بخيالنا - على متن مثل هذه القصة - الى ما قبل نصف قرن من الزمان .. الى عصر السفر بالعربات والجياد ، والمبيت فى حانات الطريق ، لا السفر بالطائرة التى تركبها بعد افطارك فى القاهرة ، فتتنــــاول غداءك فى روما ، وعشاءك فى لندن !

اما من ناحية الموضوع ، فقد اغرانى بتقديم هذه القصة لك انها ،رغم مرور اكثر من مائة سنة على كتابتها ، تعالج موضوع اليوم بل موضوع « الساعة » فى المجتمع الحديث ، واعنى به موضوع الصراع المحتدم بين الجنسين حول « جسد الزوجة » ، وهل هو ملك لزوجها ، يستمتع به وقتما يشاء .. ام هو ملك لها وحدها ، تجود به - او تضن - كما يروقها !؟

اما العقبة الثانية التى واجهتنى بصدد هــذه القصة ، فهى انها تستغرق - بنصها الحرفى الذى هو شعار مطبوعات كتابى - اكثر من ٣٠٠ صفحة . ومن ثم وجدتنى امام احد حلين : اما ان اقدمها لك فى عدد واحد ضخم ، بثمن مضاعف .. او فى عددين عاديين ، بثمن عادى ، على ان يصدرا فى تاريخين متقاربين ، خلال شهر واحد .. وقد آثرت هذا الحل الاخير ، وعلى هذا ارجو ان اقدم لك الجزء الثانى والاخير من هذه القصة فى اواخر مايو الحالى باذن الله والله ولى التوفيق

حلمى مراد

٠٠ وعلى ضوء الشمعة الباهت ، رات خادمتها راقدة الى جوار زوجها (ص١٥٤)

جي دي موباسان

قصة حياته .. ومأساته !

(ملخصة عن احدث كتاب للأديب الانجليزى « فرانسيس ستيجمولر »)

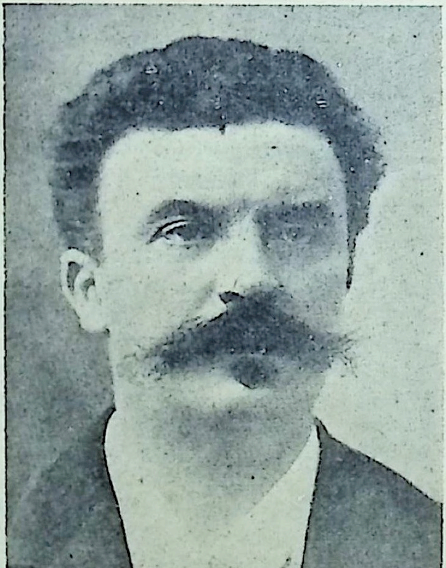

• فى مقاطعة (نورماندى) بشمال فرنسا ، وفى مدينة (روان) ، احتفل فى عام ١٨٤٦ بزفافين لم تفصل بينهما سوى بضعة اشهر ، ففى اليوم التاسع من نوفمبر من ذلك العام تزوجت الآنسة «لويز دى موباسان» من المدعو «الفريد لو بواتيفان» ثم لم تلبث اخته «لور» ان تزوجت من «جوستاف دى موباسان » شقيق لويز

وكان عريس « لور » من اسرة غنية فى روان، اذ كان والده سيدا فاضلا من كبار المزارعين ومديرا للشركة الوطنية التى تحتكر زراعة الطباق، ومازال التوفيق يلازمه والحظ يواتيه حتى اغراه ذلك بان يحيى فى اسمه لفظ « دى » الذى يوحى بأن صاحبه ينحدر من اصل نبيل عريق ، وكان هذا اللفظ قد بطل استعماله بعد الثورة الفرنسية التى حاربت الاقطاعيين والغت الالقاب التى توحى بالتفرقة بين افراد الشعب

أمه .. المغرمة بالأدب !

◆ وكانت اسرة الزوجة « لور » من البرجوازيين أغنياء الحرب الذين أثروا واصبحت لهم عقارات عديدة ثم مكانة فى المجتمع ، فقد كان والدها يملك محلجا كبيرا للقطن فى روان ثم تزوج من ابنة رجل غنى يمتلك كثيرا من السفن ، فتضخمت ثروة الزوجين واصبح للور مزرعة تزرى بمزرعة زوجها !.. وكانت تحب اخاها الفريد - المغرم بدراسة الآداب والفلسفة - فما لبثت أن تذوقت الآداب القديمة والحديثة على يديه وعلى يدى صديق له من كبار الادباء يدعى « جوستاف فلوبير » ، كما تعلمت من الانجليزية ماسمح لها بقراءة قصص شكسبير بلغتها الاصلية ! وذاع عن « لور » ذلك فزادت شهرتها بالشذوذ ، هذه الشهرة التى اكتسبتها بالافراط فى أناقتها افراطا لايرضى عنه المتزمتون، وبغرامها الشديد بركوب الخيل والتدخين ، وأخيرا بروحها المتحررة حتى لتكاد أن لا تؤمن بعقيدة خاصة !

وقضت «لور» شهر العسل مع زوجها « جوستاف دى موباسان » فى نزهة بايطاليا ، تماما كما فعل أخوها الفريد وزوجته لويز دى موباسان منذ شهور . وحين عادا الى فرنسا صارا يقضيان الشتاء من كل عام فى باريس ، ثم بقية العام فى وطنهما (نورماندى) ، وخاصة فى فيللا بقرية (أتريتا) الساحرة بالقرب من الهافر .

شقيق ابن المرضعة !

◆ وفى سنة ١٨٤٨ توفى الفريد فى شرخ شبابه واوج سعادته ليخلف الاسى فى قلوب اسرته واصدقائه وخاصة « فلوبير » العظيم .. وبعد عامين، استأجرت لور وزوجها قصر (ميرومسنيل) على مسيرة خمسة اميال من ميناء (دييب) . وفى هذا القصر ، ولد طفلهما الاول « هنرى - رينيه - البير - جى دى موباسان » ، فى اغسطس من نفس العام . واستقبل الوافد استقبالا رائعا .. وقال فيما بعد عن راسه المستدير : « ان كروية راسى يرجع الفضل فيها الى الطبيب الكهل الذى جاء بى الى هذا العالم،فقد وضعنى بين ركبتيهوراح يدلك راسى تدليكا قويا ختمه بحركة اشبه بحركة صانع الاوانى الفخارية عندما يديرها تحت اصبعه لتتخذ شكلا كرويا !.. ثم قال لوالدتى : انظرى كيف جعلت راسه فى استدارة التفاحة ، لأطمئن الى انه سوف ينعم بمخ نشيط وذكاء موفور من الطراز الاول »

واتسمت امومة « لور » بالغيرة التى راحت تلح عليها وتضايقها حتى آخر ايامها ، فقد حدث وهى فى أرذل العمر - بعد موت ولدها « جى » - ان كتبت صحيفة باريسية تقول ان أخا « موباسان » فى الرضاع (اى ابن مرضعته) عين حارسا على متنزه « سولفرينو » فى روان ، حيث يتوسط الحديقة تمثال

نصفى للكاتب الكبير .. ومما يسترعى النظر شدة الشبه بين الحارس واخيه في الرضاعة !!

ولم تغضب « لور » العجوز لما يلمح اليه الكاتب من ان زوجها لم يكن والد « جى » فحسب ولكنه والد ابن المرضعة كذلك ، بقدر ما احنقها ان يكون لطفلها مرضعة غيرها ! ولذلك بادرت تكتب مصححة هذه الواقعة : « لقد كنت مرضعة ولدى « جى » الوحيدة ، ولن اسمح لواحدة ان تنتزع منى هذا اللقب . ولا ادرى كيف تجيز مخلوقة لنفسها ذلك لمجرد انها ارضعته اربعة أيام او خمسة على الاكثر عندما أصبت بوعكة خفيفة بعد مولده بشهرين ، فعهدت الى امراة تدعى « كفاليبه » - ابنة مزارع من الجيران - بان ترضع « جى » فى اثناء وعكتى التى لم تدم اكثر من اسبوع واحد ارتد بعده ولدى الى صدرى .. ثم لم افطمه حتى بلغ الشهر العشرين من عمره ! »

وبعد بضعة اشهر من مولد « جى » ، رحلت امه « لور » عن (ميرومسنيل) كعادتها فى حب التنقل من مكان الى آخر فى (نورماندى) - ويبدو كذلك انها ضاقت بنقيق الضفادع الذى ارهق اعصابها المرهفة ! - حتى اذ بلغ الطفل السادسة من عمره ، انتقلت الأسرة مرة اخرى الى القصر الابيض « شاتو بلان » بالقرب من قرية (اتريتا) .. وهو اول دار وعتها ذاكرة « جى »، واشار اليها فى كثير من قصصه ، من ذلك قوله : « أذكر اننى كنت حتى فى طفولتى مغرما بالقطط غراما عجيبا يغرينى بان اخنقها بيدى ! وقد حدث ذات يوم ، فى طرف الحديقة بالقرب من الغابة ، ان لحظت فجاة شيئا ابيض يتدحرج على الحشائش الطويلة .. فمضيت نحوه لأتبين كنهه ، فوجدته قطا واقعا فى فخ حتى ليكاد يختنق ، وهو يتلوى من الالم ويمزق الارض بمخالبه .. ثم يثب فى الهواء ليرتد الى الارض من جديد ، كانما فقد الحياة .. لكنه لا يلبث ان يعاود الكرة مرة بعد مرة . وكان تنفسه الاجش اللاهث اشبه بصوت المضخة المروع - ومازال يملأ اذنى حتى الآن ! - وكان بوسعى ان اتناول مجرفة فاقطع بها الفخ ، او ارسل خادما يخبر والدى بما حدث .. لكنى لم اتحرك ، وظل قلبى يدق صدرى بشدة وانا ارقب ذلك المشهد بسرور قاس .. حتى فاضت روح القط ! - بينما لو كان كلبا لأطبقت على الفخ النحاسى باسنانى ولم اطق ان اراه يتعذب طويلا امام عينى ! - حتى اذا ايقنت من وفاة القط تماما ، وكان لايزال دافئا ، تقدمت منه فلمسته ثم جذبت ذيله بشدة ! »

الحادثة التى غيرت نظرته الى الاشياء ..

◆ وفى تلك الاثناء بدات العلاقات الزوجية بين والدى « جى » تتزعزع وتهن ، لان الاب بدا يضل سواء السبيل ، كما بدا الصغير الذكى يلحظ ذلك

بدوره ويعير به أباه فى سلاطة ترضى والدته ! ـ ومن الامثلة الطريفة على ذلك انه بينما كانت الاسرة تقضى الشتاء فى باريس ، كعادتها فى اغلب الاحايين ، كتب الصبى لوالدته يقول : « كنت الاول فى الانشاء ، ووعدتنى المعلمة بان تكافئنى ، ثم أخذتنى الى السيرك ومعنا والدى •• ويبدو انها كانت تكافئه كذلك على (شىء) لا أعرفه !!»

وعندما بلغ الصبى الناضج الثالثة عشرة من عمره ، وقع له حادث لم يبرح نفسه ومخيلته قط ، وقد وصفه بقوله : « كنت فى تلك السن مرحا شديد الاغتباط بما حولى ، مفعم القلب بالفرح لأننى حى •• ثم حدث يوما ، حوالى نهاية سبتمبر ، أن كنت العب فى احد المتنزهات ـ قبل عودتى الى المدرسة ـ وفيما كنت اجرى بين الغصون والاوراق ، لمحت والدى ووالدتى يسيران فى احدى الطرقات • كان يوما عاصفا لا أنساه ، وكان صف الاشجار يتأود ويتأوه ويغمغم بصيحات خافتة ، هى صيحات الغابة المكتومة أثناء العاصفة • وكانت الاوراق الصفراء تتطاير من الاشجار كالطيور ثم تندفع على طول الطريق وكأنها حيوانات صغيرة راكضة • وكنت العب لعبة الذئب آنذاك واعول مثله تماما، ولكن •• ما أن شاهدت والدى حتى تقدمت نحوهما أسترق الخطى كى افاجئهما •• بيد أن الفزع سمرنى فى مكانى وانا اسمع والدى يصيح بوالدتى : « ان أمك حمقاء •• ومع ذلك فليس هذا شأنها ولكنه شأنك أنت ! قلت لك اننى فى حاجة الى نقود واننى أريدك على أن توقعى ! »

فأجابته والدتى قائلة فى حدة : « لن اوقع ، فهى نقود « جى » وسوف احتفظ له بها ، ولا احب ان أراك تبعثرها على الخادمات ونسائك الاخريات بنفس الطريقة التى بعثرت بها أموالك ! »

وكان أبى يرتعد بالغضب كقصبة فى الهواء فاستدار واطبق على عنق والدتى ثم اخذ يضربها على وجهها ! وسقطت قبعتها بعد أن تهدل شعرها فتناثر على كتفيها ، وعبثا حاولت أن تدرأ ضرباته المتلاحقة المحمومة •• وكأنما جن جنونه فصار يضرب ويضرب ويضرب حتى هوت على الارض وهى تخفى وجهها بين ذراعيها •• وعندئذ لوى ذراعها وعاد يضربها مرة أخرى •• وخيل الى أن نهاية العالم قد حلت وان القوانين والشرائع الخالدة قد تبدلت وتغيرت !•• ومنذ ذلك اليوم ، اختلف كل شىء فى عينى ولمحت الجانب الآخر للأشياء •• الجانب السيىء !•• ولم ار منذ ذلك الحين أثرا للجانب الآخر ! »

ولم يكن للطلاق وجود فى فرنسا فى ذلك الوقت ، وكانت العائلات الطيبة تؤثر الحياة الزوجية التعسة على الشهرة البغيضة والصيت المقيت بالانفصال الشرعى ، ولكن « لور » استطاعت ان تتجنب الرسميات القانونية بان حملت زوجها دون صعوبة كبيرة على استصدار موافقة أحد المكاتب الشرعية على ان

يعيشا منفصلين . ومنذ ذلك العهد ومسيو دى موباسان يكتفى بزيارة زوجته وولديه «جى» و «هرفيه» فى فترات متباعدة .. وكأنه ضيف عابر !

يرتدى ثياب النساء !

◆ وتولى قسيس الكنيسة تعليم «جى» قواعد اللغة والحساب واللاتينية ، كما تولت والدته دراساته الاخرى فى المساء .. وكانت تقرأ له بالفرنسية مسرحيات شكسبير التى قرأتها فى شبابها بالانجليزية . وكان أحب هذه القصص الى ولدها البكر : « ماكبث » و « حلم ليلة صيف » ، لما فيها من ترجيع لأصداء الريف ، كما كانت « لور » قصاصة بارعة ملأت رأس « جى » بكثير من القصص وبأنباء مشاهداتها العديدة فى جزيرة (كورسيكا) ، ثم بمغامرات خيالية خفية كان يقف لها شعر الصغير وشعر وصيفتها مارى التى كانت تحس لهفة على سماع تلك الحكايات رغم رعدات الفزع التى كانت تذرع عمودها الفقرى وهى تصغى اليها !

ولما بلغ « جى » الثالثة عشرة من عمره وحان ان يتلقى مزيدا من التعليم ، ارسلته والدته الى معهد دينى على الرغم من تحررها الفكرى بل تحررها من اى عقيدة دينية ، لا لشىء سوى ان « الموضة » كانت تقضى بارسال أبناء النبلاء والارستقراطيين الى مثل ذلك المعهد الذى تتميز نظمه بصرامة (اسبرطة) ورقة (أثينا) معا ، ولكن «جى» وجد فى جدرانه العالية ، وفى قتام أثواب القساوسة ، سجنا بغيضا .. ولكنه راض نفسه تدريجا حتى ألف تلك البيئة على مضض !

وفى تلك الاثناء ، كانت « لور » تراسل صديق اخيها الراحل وصديقها القديم الأديب «جوستاف فلوبير» ، الذى اضطهدت قصته « مدام بوفارى » فى سنة ١٨٥٧ فكتب له ذلك الاضطهاد سمعة سيئة ومجدا أدبيا خالدا على الأزمان ! وأهداها فلوبير قصته الجديدة (سلامبو) ، ثم عندما توفيت والدتها ارسل يعزيها أجمل العزاء .. وكتبت له ذات مرة تقول : « ينبغى أن أتطلع الآن الى المستقبل ، فان لى طفلين احبهما من كل قلبى وروحى ، وآمل أن يمنحانى أياما أهنأ وأسعد : أصغرهما لا يزيد على كونه مزارعا صغيرا بادى الغباء ، وأكبرهما شاب جاد العقل فى الخامسة عشرة ، رأى وأدرك أشياء كثيرة فنضج قبل سنه ، وسوف يذكرك بخاله « ألفريد » الذى يشبهه فى أمور كثيرة ، حتى فى حبه للأدب ، ولذلك فأنا واثقة انك سوف تحبه . وقد اضطررت الى أن اخرجه من المعهد شهورا لأنهم أبوا أن يقدموا له لحما فى أثناء ابلاله من المرض ، كأمر الطبيب .. والواقع أن مرضه ليس خطيرا ، ولكنه يعانى ضعفا فى الاعصاب التى زادتها ارهاقا حياته الصارمة التى لاتوائم طبيعته الحساسة المرهفة ! »

وطرد «جى» من المعهد لسوء سلوكه في نهاية السنة السابقة لتقدمه الى امتحان البكالوريا ، فقررت الام الحاقه بمدرسة فى (روان) . وهكذا استعاد مرة اخرى حريته فى ان يسبح ويجذف ، ويتعشى تحت ضياء القمر ، ويرقب « كورو » و « كوربيه » وغيرهما من الفنانين وهم يرسمون لوحاتهم فى الريف الساحر . وكان أحيانا يرتدى ثوبا نسائيا ليصعق احدى السائحات الانجليزيات بلغة « غير نسوية » على سبيل المزاح !.. وكانت امه تفرط فى اطلاق العنان له ، كما منحته قاربا طالما هفا قلبه اليه ، ولكنها كانت حريصة على أن تستمع الى دروسه وتطلعه على روائع وبدائع الشعر الذى تتذوقه . وكان يحدث امه بصراحة عن فتاة أحبها حب صداقة ، وان لم يدم ذلك الحب طويلا . على أن الفتى لم يتورط كوالده فى حب خادمة أو عاهرة ، بل كان يهاجم النساء فى حديثه هجوما عنيفا ، دعا والدته الى ان تساله ذات مرة : « ومارأيك فى ؟ »

فاجابها : « أنت لست كسائر النساء ! »

وما ان حصل «جى» على البكالوريا وبدأ يتلقى دراسته فى القانون ، حتى شبت الحرب بين فرنسا وبروسيا ، .فانخرط فى سلك الجيش . ولما وضعت الحرب اوزارها ، لم يستطع معاودة دراسة القانون لان احوال جده كانت قد ساءت فانقطعت المساعدة التى كان يمد بها «جى» ووالدته .. واضطر الفتى الى العمل كاتبا فى وزارة البحرية ، بمرتب ضئيل ، ليتمكن من استئناف دراسته فى كلية الحقوق .

وفى تلك الاثناء كان أصدقاء « فلوبير » يقضون الواحد بعد الآخر ، ويحطمون بموتهم قلب الصديق الوفى الذى كان يدفن مع كل منهم جزءا من نفسه ، اذ فقد « بويليه » فى سنة ١٨٦٩ ، ثم « سانت بيف » بعد شهور اخرى ، ثم « جيل دبلان » و « جيل دى جونكور » ، ولم يبق من أعز الناس اليه سوى جورج صاندوترجنيف . وفى تلك الاثناء ، راح « جى » يزور الرجل المحطم القلب ويقرأ له اشعاره ، ويلقى منه كل تشجيع ، ثم مالبث أن احتل فى نفس الكاتب الاديب ذلك المكان السامى الذى كان يحتله من قبل خاله « الفريد » ..

وكان « جى » يقطن يومئذ مع اربعة من الشبان ، كلهم فقير ، اتخذوا حجرة واحدة فى حانة صغيرة ليحشدوا فيها اسرتهم ، ولم يكونوا يبالون بشىء فى الحياة سوى المزاح والضحك البرىء .. والتجديف فى نهر السين ! ووصف « جى » مغامراته « النهرية » تلك فى قصة قصيرة ، نشرتها له صحيفة (ايكو دى بارى) ، على ما احتوت من مبالغة !

لقاء موباسان بأميل زولا

◆ ثم تعرف الشاب الى الأديب الكبير «زولا» الذى كتب عنه يقول : «عرفت موباسان فى صالون « فلوبير » الادبى حوالى سنة ١٨٧٤ ، بعد تخرجه مباشرة من الكلية ، وكان يتردد على استاذه مرة فى كل اسبوع ليقرأ له ماكتب فيصحح له فلوبير عباراته ويسدد خطاه . وكان «جى» فى حضرتنا قليل الكلام، يصغى بذكاء يعرف كفاياته ويقبس لمستقبل حياته ! وسرعان ماغدونا اصدقاء بدورنا لهذا الشاب الألمعى ، وعجبنا لقصصه بقدر ما اعجبتنا . وكان شابا متوسط القامة ، قوى البناء ، مفتول الذراعين ، ومجدفا مروعا - اذ كان يستطيع ان يجذف فى اليوم خمسين ميلا على صفحة السين ، لمجرد اللهو والرياضة ! - هذا الى انه كان معتدا بنفسه ، وراوية لأعجب القصص عن النساء ، مما كان يجعل فلوبير يضج بالضحك من نوادره وحكاياته حتى يؤلمه جنباه !

واخيرا آمن فلوبير بان «جى» شاعر ، وان مستقبلا ادبيا فى انتظاره ! .. ثم قوى ايمانه بالشاب عندما كتب قصة (والد سيمون) فى سنة ١٨٧٧ ، ونشرت بعد عامين . وتتلخص هذه القصة فى ان سيمون الصغير ولدته امه « بلانشيت » سفاحا . وكانت فتاة قروية غرر بها رجل ثم هجرها ، فراح زملاء سيمون فى المدرسة يعيرونه بانه لا اب له ! واذ استبد الشقاء بالصغير وهم يوما بان يغرق نفسه فى جدول ماء ، خف لانقاذه حداد رقيق القلب قدم حديثا الى القرية ، ثم اخذه الى والدته . ولما عرف منقذه مبلغ مايعانيه سيمون من عذاب وعناء ، سمح له بان يخبر زملاءه بانه والده ! .. فسرى عن الطفل وهدأت بذلك ثائرة اقرانه بعض الوقت .. لكنهم مالبثوا أن عادوا يهاجمونه ويصارحونه بانه لو كان له اب حقيقة لكان هذا الاب زوج امه ، فى حين انهم يعلمون عن امه ان لا زوج لها !.. وروى سيمون ذلك للحداد ، الذى كان قد اعجب ببلانشيت ، فعرض عليها ان تقبله زوجا ! .. وقبلت على الفور ، فاسرع الطفل يخبر زملاءه بان والده وزوج والدته هو الحداد « فيليب ريمى » ، وبذلك لم يعد يضحك منه او يسخر منه احد !

◆ ودهم المرض والدة « جى دى موباسان » ، وساءت لمرضها حالة ولدها النفسية - على ضيقها وتبرمها بالعمل الكتابى وارقام الحسابات واعمال الميزانية فى وزارة البحرية ! - فاخذ شعره يتساقط من راسه وجسمه ، ولم يجد فيه علاج الاطباء .. فكتب اليه فلوبير يحذره من الاكتئاب ، ولكن « جى » لم ينتصح ، فزادت نفسه قتاما على قتام .. وفى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٧٩ كتب فلوبير الى مدام « جولييت آدم » رئيسة تحرير مجلة (لانوفيل ريفى) يقول: « اسمحى لى أن ارسل اليك بنفس البريد مقطوعة من الشعر اعتبرها جديرة

بمجلتك • وكاتبها - « جى دى موباسان » - موظف بإدارة المستخدمين فى وزارة التربية والتعليم ، واعتقد أن له مستقبلا كبيرا فى عالم الادب • وأنا أحبه غاية الحب لأنه أيضا ابن أخت صديقى الراحل العزيز « ألفريد لو بواتيفان » ، ويشبهه كل الشبه • وأكون شاكرا لو نشرت له هذه القصيدة الصغيرة • •وقد ظهرت لكاتبها مسرحية فى هذا الشتاء اسمها « تاريخ الازمنة القديمة » ولقيت نجاحا ملحوظا يبشر بمستقبل كبير •• »

وكلما تقدمت به الاعوام تضاعف شعور «جى» بالهم والاكتئاب ، وزادت نظرته الى حياته تجهما •• ولعل أثقل ماكان يؤوده أن يبقى فى المكاتب منحنيا على الدفاتر والأوراق ، وهو الذى اعتاد الهواء الطلق والفيافى الواسعة ، ولذلك سرعان ما اتخذ من الكتابة الأدبية حرفة يتحرر بها من العمل فى المصالح الحكومية ويكسب بها قوته ، ولذلك فانه كثيرا ما أطلق على نفسه لقب « تاجر النثر » !

ثم مالبث أن اتصل بزولا وراح يتردد عليه فى مساء كل ثلاثاء ، وفى رفقته اربعة او خمسة من الأدباء الشبان •• وفى ذلك يقول : « كنا نناقش جديا سبل النجاح ، فان خمسة أو ستة فى وسعهم أن يعملوا الكثير •• ماذا لو ضربنا الحصار على احدى الصحف ورحنا نمطرها لمدة ستة شهور وابلا من المقالات التى يزكيها أصدقاؤنا الكبار ، الى ان ينجح واحد منا على الاقل فى ان يغدو كاتبا منتظما لهذه الصحيفة ؟؟ فقط يجب أن نفكر فى شىء غير عادى او متوقع •• شىء مثير يجبر الجماهير على الانتباه الينا ، ولو كان هذا الشىء نكتة ظريفة او فكاهة طريفة • •ولماذا لا نصدر مجلدا يحوى بين دفتيه انتاجنا الجماعى فى القصص الضاحكة ، ونسميه مثلا : « الغزو الكوميدى » ؟

•• وسرعان ماكتب «جى» قصته الطويلة القصيرة « كرة الشحم » - « بول دى سويف » - وهى قصة عاهرة بدينة سافرت فى عربة كبيرة مع ركاب من علية القوم الى روان • وظلوا يتجنبونها طوال الطريق ، تأففا وترفعا ، حتى نفد زادهم من الطعام واضطروا أن يسألوها السماح لهم بان يشاركوها فيما معها من زاد كثير ! وكان عليهم أن يبيتوا ليلتهم فى فندق ريفى فى الطريق ، ولكن ضابطا بروسيا ابى أن ياذن لهم باستئناف الرحيل فى الصباح، ما لم تقض « بول دى سويف » تلك الليلة فى مضجعه ! وعندئذ أخذ علية القوم الارستقراطيون على انفسهم عهدا أن يغروها بالموافقة ••ومازالوا يضرعون الى العاهرة التى أخذتها عزة الوطنية حتى قبلت التضحية كارهة ؟ وفى الصباح استأنفت العربة سيرها بين فرحة صفوة رجال المجتمع •• الذين عادوا ينبذون تلك المراة التى تضرعوا اليها بالامس أن تفرط فى عرضها

لعدو للوطن كى يسمح لهم بالرحيل فى اليوم التالى ! - بينما انتبذت هى ركنا من العربة حيث راحت تبكى وتنتحب !

وقرأ فلوبير هذه القصة ، فارسل الى « جى » يهنئه عليها ، ويعتبرها جوهرة من الانتاج الخالد ! ويعتقد الكثيرون ان أبطال هذه القصة حقيقيون ، عاشوا فى تلك الحقبة بمدينة (روان) ، بينما يرجح البعض الآخر انها احدى القصص التى سمعها » جى » من زوج ارملة خاله « الفريد » - «شارل لوردوم»- ومهما تكن مادتها مستقاة من هنا أو هناك ، فقد كانت عملا فنيا رائعا ينبىء عن موهبة قصصية ، وقوة على الملاحظة ، وروح هازلة ساخرة !

وكتب « جى دى موباسان » الى محرر (الجالوا) يقول : « علقتم على قصصنا » ليالى ميدان » التى تحمل اسماء ستة من كتاب الشباب ،ويتصدرها تقديم من اميل زولا ، ثم تساءلتم هل ترمى هذه القصص الى الواقعية او المثالية ؟ ولا اكتمكم اننى لا افهم معنى للمشاحنات حول هذين الوصفين ، فانا لا انتمى الى مدرسة خاصة .. بل يعجبنى بلا تمييز كل ماهو جيد من الوان الادب ، فى جميع القرون ، ومختلف الاساليب ! »

وكتب فلوبير بعد اقل من عام الى موباسان يقول له : « لقد طبعت « ليالى ميدان » ثمانى مرات ، بينما لم يطبع كتابى « ثلاث قصص » سوى اربع مرات ، ولذلك فسوف اغبطك .. وسوف يخالط نفسى الحسد لك !»

وظهر ديوان الشعر الاول والأوحد لموباسان فى ٢٥ ابريل سنة ١٨٨٠ - اى بعد ثمانية ايام من نشر (ليالى ميدان) - وقد اهداه لأستاذه وصديقه الروحى « جوستاف فلوبير » . وفى ٦ مايو ، مات فلوبير بالسكتة القلبية ، فعصف الحزن بوجدان موباسان وترجنيف (فى روسيا) ، وتجمع فى مقبرة الفقيد كل الشباب الذى يعرفه ويغرم بادبه - وان لم يحضر للاسف « فيكتور هيجو » او « رينان » او « تين » او « ديماس » او غيرهم من ادباء العصر !!

وفى ٦ يوليه سنة ١٨٨١ ، غادر « جى » باريس الى افريقيا ، ليرى - على حد قوله - ارض الشمس والرمال فى عنفوان الصيف القائظ .. ولأنه كان متلهفا على مشاهدة الاعراب فى بلاد (الجزائر) ، والتفرج على اهرامات الجيزة وابى الهول ، ثم الحلاق التركى فى مصر !! وعندما رجع من رحلته الى افريقيا، وجد فى انتظاره خطابا من ترجنيف يهنئه فيه على قصته « منزل مدام تلييه » ، ويعده بترجمتها الى الروسية .. لانه واثق انها سوف تهز مشاعر الروس! كما وعد بأن يترجم من قصصه الاخرى التى اربت على الستين ، كل مايمكن ترجمته ..

أول قصة طويلة

◆ وفى ٢٧ فبراير سنة ١٨٨٣ بدات صحيفة (جيل بلان) تنشر تباعا قصة موباسان : « حياة امراة » ـ التى تقراها فى هذا الكتاب ـ فانتهت آخر حلقاتها فى ٦ أبريل ، وهى قصة تكاد تكون صورة طبق الاصل من حياة والدة مؤلفها التعسة ، التى لم تلح فى طلب الانفصال عن زوجها رسميا ، بل تركته يسدر فى مباذله ، حتى حطم حياتها وحياة الآخرين ٠٠ وحياته هو !

وعندما طلب « جى » اجازة من عمله العلمى ـ تمهيدا لاستقالته ـ انتقل من غرفته الارضية بفناء منزل عند منحدرات (مونمارتر) ، الى غرفتين فى نفس الحى بشارع (كلوزيل) الحاشد بالعاهرات ! وسرعان ما صادقهن واختار من بينهن بطلة قصته « كرة الشحم » ٠٠ فلما نجحت قصصه انتقل الى شقة اكبر ٠٠ ثم ذاعت شهرته بعد قصة « حياة امراة » التى نقدته عليها مجلة « جيل بلان » ثمانية آلاف فرنك ذهبى ـ اى مايعادل الآن ١٫٧٥٠٫٠٠٠ فرنك من الورق الحالى ـ فانتقل على الاثر الى حى حديث ، وامعن فى مصادقة الداعرات ٠٠ كما اختار خادمة فى مطعم لتكون خليلة « شبه دائمة » له !

وفى مشهد من قصة « ابن » تناول موباسان حديث الابناء غير الشرعيين ، فقال « ندر ان يوجد رجل ليس ابا لاطفال يجهل وجودهم !٠٠ اطفال جاء فى شهادات ميلادهم : « الاب غير معروف !» ٠٠ واذا احصينا عدد من يتصل بهن الرجل فيما بين سن الثامنة عشرة والاربعين ، لتجاوزن المئتى او الثلاثمائة امراة !»

ويقول فى قصة اخرى باسم « هو » : « بودى لو كان لى الف ساعد والف شفة والف مزاج ، كى استطيع معانقة جيش من هذه المخلوقات الساحرة التافهة ٠٠ دفعة واحدة ! »

وقد وصف احد اصدقائه المقربين رفيقات « جى » من النساء بقوله : « كن يندفعن الى بيته من خلال النوافذ والابواب ، واكثرهن من محترفات البغاء ٠٠ ولعل شقاء والدته خلق فى نفسه عقدة تنفره من الزواج !

وتمتاز قصصه فى هذه الناحية بوجود الزوج المشاكس الذى يستحق ان تقابل مناكفته او سماجته بالخيانة !! وهو لم يتحدث عن الزواج السعيد الا فى قصة واحدة اسماها « السعادة » ، ولكنه مالبث بعد انقضاء اربع سنوات على نشرها ، ان غير فيها فاضاف بعض عبارات السخرية بالمراة التى تحسب انها قد وجدت السعادة الكاملة فى زوجها ، كما جعلها تكتشف اخيرا انه كان يخونها ، فتنتحر !٠٠ هكذا ختم «جى» مثله الوحيد على الزواج الكامل !٠٠ وفى بعض قصصه نراه لا يطالب الزوجة بالتزام العفة والشرف ،

ولكنه يناشدها فقط أن تعمل على اخفاء خيانتها عن زوجها ، ليعيش فى سعادة وهمية ، معتقدا بان زوجته .. جوهرة مصونة !

أنواع النساء فى حياته !

◆ وفى قصة « التهور » تلح الزوجة الشابة على زوجها ان يحدثها عن علاقاته مع النساء قبل الزواج ، فيخبرها بانهن كن اربعة أنواع : البغايا ، والممثلات ، والعاملات الصغيرات ، ونساء المجتمع الراقى ! وقد جاء فى مذكرات « فرانسوا تاسسار » وصيف موباسان : « مضينا الى (اتريتا) لقضاء عشرة ايام فى المنزل الجديد الذى شيده سيدى حديثا وسماه « لا جيليت » - اى « جى الصغير ! » - وفى اليوم الثانى ، حوالى السابعة مساء ، تناولت فانوسا ورافقت سيدى الى بوابة الحديقة . وسرعان ماوصلت عربة مطهمة نزلت منها سيدة تلتف فى عدة اوشحة تخفى معالمها . وتناول سيدى يدها ثم عدنا الى المنزل . وفى مخدعه خلع عن ضيفته عدة شيلان ثم راح يحدثها بلطف وادب جم يطاوعانه كلما اراد . ولما تناولا عشاءهما مضيت الى المطبخ ، فسالتنى الطاهية « اليست جميلة ؟ » قلت ضاحكا : « انها اشبه بامبراطورة!» .. فصاحت بى جادة : « لا تضحك ، فهذه السيدة كانت خليلة لنابليون ، وكل انسان فى (اتريتا) يعرف انه جن بها ! » .. وفى الساعة العاشرة تناولت الفانوس ورافقت سيدى وضيفته الى عربتها ، وسمعته يقول لها : « لا تنتظرينى ، فلدى مفتاحى .. »

وكتب موباسان لامراة تدعى « مدام بيزيه » يقول : « سيدتى .. الا يحق لى ان ادعوك للعشاء بمنزلى فى مساء السبت القادم مع « بورتوريس » التى قبلت الدعوة ، و « ميلاك » التى ردت بالايجاب ، و «ستروس» التى ساكتب اليها على الفور ؟ انا اعلم انه ليس مالوفا ان تتعشى سيدة محترمة فى منزل رجل اعزب ، ولكنى لا ارى ما يذهل فى ذلك اذا كان بين الضيوف نساء اخريات تعرفهن ، ولو اننى اطلعتك على قائمة السيدات اللائى تعشين معى فى (كان) او (اتريتا) او هنا ، لوجدت القائمة طويلة وحافلة باسماء صفوة سيدات المجتمع ! »

وحدث عندما كان فى زيارة والدته واخيه بمدينة (كان) ، ان ارسلت له سيدة من باريس هدية عبارة عن نصف (دستة) من الدمى فى ثياب ارامل ، ملمعة الى عدد من حطم قلوبهن ثم هجرهن ! وسرعان ما اعاد اليها موباسان تلك الدمى بعد ان حشر مناديل قديمة تحت ملابس الدمى لتبدو كل منها وقد انتفخت بطنها من الحمل ، ثم ارفق بها ورقة كتب عليها :

- كلهن فى ليلة واحدة !

نساء المجتمع فى « المضيفة » !

◆ وفى يولية سنة ١٨٨٤ مضى «جى» وخادمه الخاص « فرنسوا » لقضاء الصيف لأول مرة فى قصر « لاجيليت » المزود بمكتبة كبيرة وجناح للضيافة وحديقة غناء ومروج باسمة وأسماك للزينة وكثير من الدجاج والقطط والكلاب، وببغاء يدعى (جاكوت) درب على أن يحيى السيدات صائحا :

ـ صباح الخير أيتها الخنزيرات !

وكانت اولى من شغلت جناح الضيافة فى القصر ، سيدة أمريكية شقراء تدعى « بلانش روزفلت » ، كانت قد قدمت الى أوربا لدراسة فن الغناء فى (ميلان) ، وكانت على جانب كبير من الجمال والذكاء ، كتبت قصة تدعى « ملكة النحاس » ثم راحت تتحدث عن نفسها كاديبة وفنانة ٠ ومنذ حاولت اخراج الاوبرا ـ كوميك المشهورة « قناع باندورا » فى نيويورك ، أطلق عليها أصدقاؤها اسم « بندورا ! » وعندما كانت فى السابعة عشرة من عمرها وصفها فيكتور هوجو بانها « جمال وعبقرية الدنيا الجديدة ! » كما قال فيها الشاعر الانجليزى براونج : « من دواعى الاسف أن « رفاييل » ليس حيا ليراها ويجعل منها (مادونا) جديدة !! »٠٠ ولقد احبها «جى» حبا طاغيا ، واحبت فيه هى طيبة قلبه ووفاءه ، وظلت تتردد عليه الى ان قتلت فى حادث عربة بمونت كارلو

ومن صديقات موباسان الاديبات :« هرمين لوكونت » ، وكانت تقيم فى فيللا صغيرة تملكها وتطلق عليها اسم (الكوخ) ، خلف كازينو اتريتا ٠ وكانت على نصيب موفور من الثقافة ، وزوجة لمهندس معمارى اعتاد ان يقضى معها شهرا واحدا فى اتريتا ، ثم بقية العام فى رومانيا فى بلاط ملكتها الاديبة !

وقد تحدث موباسان فى احدى قصصه الساخرة عن عضو بمجلس النواب كافا زوج خليلته بان طلب منحه وسام « الليجيون دونير ». ! ٠٠ ومن الطريف انه عثر على خطاب كتبه «جى» نفسه الى وزير الخارجية ، وجاء فيه :

« سيدى الوزير

« أكتب اليك بشان مسيو « اندريه لوكونت » ـ وهو مهندس معمارى فرنسى عمل فى السنوات الاخيرة فى الحكومة الرومانية والتمس وزيركم فى بوخارست منحه صليب « الليجيون دونير » ـ فهل اطمع يا سيدى الوزير فى أن اوصى برعاية ملتمسه باهتمام خاص ،. لانه من خيرة أصدقائى ؟ »

وكانت « هيرمين لوكونت » تتلو الشعر بطلاقة ، وخاصة شعر « موليير » و « راسين » ٠ وفى الليل كانت تسترسل فى تلاوة الشعر لآلهة الحب على وسائد أريكة ناعمة فى الصالون ٠٠ وفى ذلك تقول فى مذكراتها : « كان جى

يشكو من عينيه ، ولكنه كان يكره ان ياوى الى فراشه مبكرا خشية الأرق ، ولذلك كثيرا ما قدم لقضاء المساء معنا فاستلقى فى ركن مظلم ثم طلب منى ان اقرأ له بصوت عال تاريخ حياة الأدباء فى القرن الثامن عشر ، واشهر الرسائل التاريخية »

زوج شرف !

◆ ومن صديقات موباسان فى المجتمع « الراقى » كانت الاميرة « بجليوزو» الفاتنة ، وهى ابنة كونت بولندى وراقصة يونانية سابقة . وقد نشأت تحب الحرية والانطلاق ، فعاشت وحدها فى قصر زوجها الذى اطلق يدها فى استعمال عرباته وخدمه طالما سمحت له بالبقاء فى الفيللا الانيقة التى يملكها فى (فلورانسا) مع ثلة من عازفى البيانو - اذ كان يعتبر نفسه ملحنا لا يشق له غبار ! - وقد طال تردد زوجته الاميرة على موباسان ، وحسب الاثنان صداقتهما خالدة ! وقد وحد بين مشاعرهما تعاليهما على المعجبين ، وشعورهما بالوحدة والاكتئاب . وعندما كانت الاميرة تنتقل فى أسفارها ، كانت رسائلهما المتبادلة لا تنقطع . وقد وقع موباسان على احداها بعبارة : « زوج الشرف ، والصديق الوفى »

ومن «نساء» موباسان أيضا امرأة كانت تدعى « كليم » - اى «كليمانس» - وهى ارملة غنية مرحة ، كستنائية الشعر ، ممتلئة بالصحة والحيوية نتيجة لاقامتها الطويلة وسط (برغنديا) حيث يستعمل النبيذ بدل اللبن حتى للاطفال !! وكانت تقضى الصيف فى فيللا باتريتا ، حيث تنفق معظم وقتها فى « لا جيليت » ، تلعب التنس وتتصايح كطائر مرح غرد .. وكانت اشبه بسكرتيرة متطوعة لموباسان ، تتلو عليه مايتلقى من رسائل ، وتجيب بما يمليه عليها ..

وفى اللحظة الباسمة من حياته ، عندما كان فى الرابعة والثلاثين من عمره ، وبعد أن شيد منزله فى (اتريتا) واستخدم وصيفه « فرانسوا ». ثم بدأ يتمتع بالحب الآثم ، كتب قصة « القلادة » .. وهى من أشهر القصص فى العالم ، وتدور حول زوجة شابة اضطرت الى أن تقترض من زميلة قديمة لها فى الدراسة ، اغنى منها بكثير ، قلادة من اللآلىء كى تظهر بها فى مناسبة هامة .. ولسوء حظها تضيع منها القلادة ، فيابى كبرياؤها وكبرياء زوجها الا أن يكرسا كل جهودهما لادخار الفرنك على الفرنك ، حتى يتسنى لهما شراء قلادة مماثلة يردانها لصاحبتها .. وفى سبيل ذلك راحا يضحيان بالضرورات ويضيقان على نفسيهما حتى تمكنا من شراء قلادة مماثلة من اللآلىء بأغلى ثمن ! وأخيرا .. عندما تذهب الزوجة الى صديقتها القديمة لترد لها القلادة وتصارحها

بالاسباب القاهرة لتاخير اعادتها اليها ، تفاجئها الزميلة السابقة بان القلادة التى ضاعت كانت ٠٠ من اللآلىء المزيفة !

وفى هذه القصة يتجلى ميل موباسان لعنصر المفاجأة ، للتسلية والترفيه والمزاح ٠٠ هذا المزاح الذى اتسمت به حياته الخاصة ، فكثيرا ما اهدى لسيده سلة مليئة بالضفادع ! ٠٠ او أطلق الفئران فى قاربه بين ضيفاته الانيقات !

ويعتقد بعض النقاد ان هذا الميل ان هو الا تعبير عن (السادية) ـ الميل الى تعذيب الجنس الآخر ! ـ التى تجرى فى دمائه ، وتجد لها متنفسا فى مثل هذه المزحة التى تهز مشاعر القارىء بما تحمل فى أطوائها من عنصر المفاجأة ، ولذلك طالما ختم قصصه بخدعة او نهاية غير متوقعة ، تصدم القارىء وتكاد تصعقه !

حبيب القلب !

◆ وعندما ظهرت قصته « بل ـ امى » أى حبيب القلب ، ضجت الصحافة فى باريس اذ اعتبرتها تشهيرا بالصحفيين ، الذين شبههم موباسان بالعاهرات ووصفهم بانهم يترددون فى حماة الرذائل ، ويبتزون المال بالتهديد ،وينسبون لانفسهم أحيانا مايكتبه لهم الغير ، بل يفاخرون به سائر الكتاب والقراء !٠٠ لكن موباسان رد على النقاد بان بطل قصته الشرير ليس صحفيا ولكنه « مغامر افاق » صادف ان وجد له عملا بالصحافة ٠٠ كما رد على القائلين بانه يعنى اشخاص صحفيين بالذات ، بقوله :

ـ من منكم الذى يتعرف على نفسه فى احدى شخصيات قصتى ! اننى لا اعنى احدا بذاته ، ولم اكن أتمثل فى خاطرى آنذاك اشخاصا حقيقيين ٠٠ وللفنان الحق فى ان يرى كل شىء وان يستعمل كل شىء ، على ان تكون اشخاص قصته محجبة مقنعة بحيث لا يميزها او يتعرف عليها انسان !

والواقع ان موباسان خانته القدرة على اخفاء شخصيات قصته تحت نقاب كثيف ، لفرط حرصه على ان لا ينتزع « الحياة » من قصته ، ولذلك قيل ماقيل من انها « سخيفة » ، و « تعافها النفس » ، و « مكتوبة على عجل » ، و « ضحكة لا عمق فيها » ٠٠ الخ ٠٠ لكن ناقدا لم يستطع ان يطلق عليها انها « عديمة الحياة » ، او ان شخصياتها غير منتزعة من صميم الحياة نفسها !

والواقع كذلك ان موباسان وضع كثيرا من نفسه وذاته فى بطل قصته ٠٠ بل انه كان يوقع بعض قصصه القصيرة فى المجلات باسم « بل ـ امى » ٠ ولقد اهدى نسخة من هذه القصة الى سيدة وكتب لها فى ختام اهدائه : « مع تحيات « بل ـ امى » نفسه !٠٠ » على الرغم من ان هذا البطل كان يقاسى من نقص فى رجولته ، على كثرة مغامراته فى مخادع النساء واوكار الخلوات !٠٠ وقد

انتهزها بعض النقاد فرصة فكتبوا يقولون : « من مبادىء موباسان المعروفة انه يجب أن ندفع ثمنا لحب المرأة : مالا اذا كانت فقيرة ، وهدايا اذا كانت غنية !.. وقد يكون هذا الحرص على دفع الثمن يعنى ارضاء المرأة حين لا يتأتى هذا الارضاء عن طريق الرجولة الكاملة !

سنة حافلة بالانتاج ..

◆ وتمتاز سنة ١٨٨٤ بزاد وفير من مؤلفات موباسان القصصية ، ففيها كتب «بل ـ امى » ، ثم قصة « جعة ياجرسون !. » ـ وهى ذكريات طفل عن والد يضرب والدته ـ ثم قصة «شالى» ، التى تدور وقائعها فى الهند ـ وقد قدمتها لك فى العدد ١٥ من كتابى ـ ثم قصة « حياة خليلة » ، وتدل على مدى حرية النشر فى فرنسا بلا قيد أو شرط !.. ثم قصة «الجبان» و «الميراث» و « ليفت » .. ثم « الصوان » و « المحاكم الريفية » .. وكان من عادة موباسان أن يقرأ قصصه لوالدته « لور » قبل نشرها ، وأن يتقبل نقدها بصدر رحب . وقد اتهمت انتاجه فى تلك السنة بالعجلة والتسرع ، وطلبت اليه ان يقلع ما استطاع عن كتابة مقالات فى الصحف والمجلات ، ليتوفر على اتقان قصصه وتجويدها . اما هو فكان يعزو هذه السرعة فى الانتاج الى تدليك الطبيب لرأسه عند مولده ـ ابتعاثا للعبقرية ! ـ بينما الواقع ان المرض الذى جعل يدب فى جسمه كان السبب الوحيد فى هذه الظاهرة ، فقد كان مصابا بداء « الزهرى » فى احدى عينيه . وقد اشار الى هذا المرض فى قصتين فقط من قصصه ، هما : « اخوات روندولى » و « الفراش » ، والأخيرة قصة بغى وطنية ارادت ان تنتقم من الالمان بأن تحمل اليهم عدوى الزهرى الذى اخذته من المانى ولم تشأ ان تعالج منه حتى تثأر لنفسها ووطنها !

وقد بلغ من ذيوع صيت موباسان ، ان كتب الرسام « فنسنت فان جوخ » لأخيه (تيو) يقول : « ان خير ما اعمله هنا ان ارسم النساء والاطفال ، ولكن لن يسعدنى كل السعادة قدر ان يولد بين الرسامين من يضارع جى دى موباسان بين الكتاب ! »

« أيامى الخمسة والعشرون ! »

◆ ثم رحل موباسان لأول مرة خارج فرنسا عملا بنصيحة والدته ، فتنقل من البندقية الى صقلية ، وزار ابهاء فينسيا وفلورنسا وروما ، وتسلق جبلى فيزوف واثينا .. ونعم بالفتيات الايطاليات ، ومضى يكتب مشاهداته لصحيفتى (جيل بلاس) و (الفيجارو) ، ولكنه أكد ان تلك الرحلة لم توقظ سحر فنه كما كانت والدته ترجو .. ثم عاد الى (اتريتا) فقضى فيها ثلاثة ايام ، ليبرحها الى (شاتيل جيون) حيث قضى ٢٥ يوما فى الاستشفاء

بمياهها المعدنية ، وسجل وصف هذه الفترة فى مؤلفه « أيامى الخمسة والعشرون » ، فقص فيه حياة المرح التى عاشها هنالك ، وكيف تعرف فيها بارملتين تنزهتا معه واستحمتا - عاريتين ! - فى بحيرة صغيرة مستديرة زرقاء صافية كالزجاج ، تقع فى قاع احدى فوهات البراكين الخامدة !٠٠ لكنه لم يتحدث قط عن المجتمع الذى عاش فيه ، لأنه كان قد بدأ يزهد الناس كل الزهد ٠٠ وفى ذلك يقول : « على كل رجل سعيد يرغب فى الاحتفاظ باستقامة الرأى ، واستقلال الحكم ، والنظر الى الحياة والانسانية والعالم نظرة الملاحظ الحر - فى غير ما تعصب او تحيز او تأثر بعقيدة او دين - عليه ان ينأى بنفسه عما نسميه بالمجتمع ، لان الرأى العام شديد العدوى بحيث لايقوى الانسان على معاشرة زملائه من المخلوقات دون ان يتأثر على الرغم منه بعقائدهم وآرائهم وحماقاتهم ! »

٠٠ وفى اثناء انتقالاته على ظهر يخته الجديد الذى سماه « بل - امى » بين اوفيرنى وباريس وانجلترا ، بدأ يكتب قصة « مونت اوريول » التى نشرت تباعا فى صحيفة (جيلان بلاف) فى الفترة ما بين ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨٦ و ٦ فبراير سنة ١٨٨٧ ، فلحظ فيها النقاد نغمة جديدة من التناهى فى الرقة والحنان والحديث عن المجتمعات الراقية باسلوب عف مهذب ٠٠ فتساءلوا :

-ترى هل بدأ الرجل يدرف مرضه فى كتبه ؟

العالم الذى عاش فيه ٠٠ غير العالم الذى وصفه

◆ وعندما سافر موباسان الى انجلترا حمل معه كتابا من « بول بورجيه » الى صديقه الروائى الامريكى الكبير « هنرى جيمس » ، فاستضافه الرجل واكرم وفادته ٠٠ وذات يوم اخذه الى احد المعارض حيث تعشيا فى مطعم به ٠٠ وفجأة قال له موباسان :

- ان امرأة تجلس امامنا ٠٠ هناك ٠٠ واحب ان اظفر بها ، فاذهب وجئنى بها !

فذهل جيمس واجابه :

- ولكننى لا استطيع يا صديقى ، فقد تكون امرأة محترمة ٠ وعليك ان تلتزم الحذر فى انجلترا !

وتكرر ذلك الطلب من موباسان خمس مرات ، واخيرا قال نافد الصبر لمضيفه :

- يبدو انك لا تعرف انسانا فى لندن !

وكما لحظ هنرى جيمس ، لحظ من قبله البارون « فردناندى روتشيلد » ان موباسان لا يتعمق الاشياء والمناظر !٠٠ وكتب ناقد فى ذلك يقول : « ان العالم الذى عاش فيه جى دى موباسان ليس كما وصفه ، فهو مثلا يقول فى

قصته (مفاجأة) ان اقدام التلاميذ فى معهد « فيتوت » كانت تغسل ثلاث مرات فقط طوال العام الدراسى !٠٠ وفى (ابيض وازرق) يروى قصة اعزب من الطراز الحديث يسير حافى القدمين على الجليد فى الليل البهيم ليغسل قدميه وينعش نفسه قبل أن يوافى عشيقته فى الموعد المضروب !٠٠ وفى قصة (ابن) ينسى الراوى خادمة بفنـــدق قضى معها ليالى عديدة ! ٠٠ وفى كل قصصه عن الحياة الزوجية فى فرنسا لا يؤمن موباسان بوجود السعادة الزوجية ! ٠٠ وفى مؤلفاته لا تشرب نساء المجتمع الراقى سوى الشمبانيا !٠٠ واذا غرر رجل بفتاة من الريف أو عاملة فهو واحد من طبقتها فحسب !٠٠ والفلاحون لا تحمل قلوبهم اى رحمة بحيوان ، أو بمن لا ينجب اطفالا !٠٠ والاطفال غير الشرعيين ينشئهم الفلاحون عادة ولو كان آباؤهم من النبلاء وعلية القوم !٠٠ وفرنسا ارض ساحرة متفوقة فى الذكاء والنساء ، ولكن الجمهورية الفرنسية - فى رأيه - سفينة من الحمقى !٠٠ واذا برزت فتاة من الدهماء فى المجتمع ، فلابد ان دماء افضل تسرى فى شرايينها ! !

والواقع ان موباسان كان فى قصصه الاولى مغرما بالمبالغة والتهويل وارضاء قرائه فى الصحف والمجلات ، وهم قراء لا تعنيهم الحقائق بقدر ما تستهويهم الغرائب والطرائف ، ولو كانت بعيدة عن المعقول او لا ظل لها من الواقع ، كما انه لم يكن يعنى - عناية فلوبير مثلا - بالبحث فى المراجع عن الحقائق ، وتحرى الدقة فى شأنها .

هستيريا !

◆ وقد جاء فى كتاب الدكتور «اكس مونته» المشهور « قصة سان ميكيل » بصدد موباسان ، ما يلى : « قلما فاتتنى محاضرة من محاضرات البروفسور (شاركو) عن الهستيريا والتنويم المغناطيسى . وكانت القاعة تغص بكثير من الكتاب والصحفيين وكبار الممثلين والممثلات . وفى تلك القاعة تعرفت بموباسان، الذى ذاع صيته يومئذ على اثر نشر قصتيه (بول دى سويف) و (منزل تلييه) . واعتدنا - انا وهو - ان نتحدث كثيرا عن التنويم المغناطيسى وكل انواع المتاعب العقلية ، كما لمست انه كان شديد اللهفة على معرفة كل شىء عن الجنون ، ليجعل منه مادة لكتابه القادم « هورلا » ، الذى جاء نبوءة امينة لمستقبل الاديب المفجع ! »

وكان موباسان قد كتب فى سنة ١٨٨٢ يقول لاحدى السيدات : « الهستيريا يا سيدتى !؟ انها كلمة اليوم الشائعة ٠٠ اتحبين ؟ اذن فانت مصابة بالهستيريا! ٠٠ اتختلفين فى انفعالاتك عن زميلاتك ولداتك ؟ اذن فانت تعانين من هستيريا ! ٠٠ اتخونين زوجك احيانا ؟ انت بلا شك نهب لهستيريا ، ولكنها هستيريا شهوانية ! ٠٠ اتسرقين بعض أثواب الحرير من الحوانيت والمتاجر ؟ اتكذبين ؟

هل انت نهمة اكول ؟ هل انت عصبية ؟ اذن فان بك هستيريا .. هستيريا .. ونحن جميعا مصابون بالهستيريا ! »

وفى تلك الايام كثر الحديث عن التنويم المغناطيسى ، والايحاء ، والامراض العصبية ، وظهرت فيها مؤلفات عديدة فى فرنسا .. وراج الحديث فى باريس عن ظاهرة ازدواج الشخصية والوقوع تحت سيطرة الارواح الشريرة ، فلا عجب ان تواتر فى قصص موباسان الحديث عن الجنون والمجانين ، والفزع والقوى الخارقة ! ولعله لمس الاضطرابات العقلية فى هستيريا والدته وخاله ، ثم فى مرضه هو وانقباض صدره واكتئابه ، وشعوره بالعزلة .. بل لقد تبدت عليه هو ظواهر الخلط العقلى بعد عام من كتابة قصة « هورلا » ، ويعتقد بعض الكتاب أن هذه القصة ان هى الا احدى ظواهر مرضه ، وانه فى تصويره لحالة البطل انما كشف عن ادراكه لمصيره المقترب بالذات ! .. هذا الرأى يعارضه كثيرون ويؤكدون ان مجنونا لا يمكن ان يكتب بمثل الدقة التى كتب بها موباسان تلك القصة ، وانه ربما تأثر فقط بالموضوع الذى كان حديث الناس فى تلك الايام ، والذى شاهد اعراضه على والدته .. كما انه كان يستشعر لذة فى افزاع قرائه ، بدليل ان قصصا له بعد ذلك خلت من عناصر الرعب والفزع ! .. ومن ناحية اخرى ، يؤيد رأى الفريق الاول ان موباسان كان يعانى من داء الزهرى منذ عام ١٨٧٥ ، وانه قبل كتابة « هورلا » بسنوات قال لبول بورجيه : « كلما جئت الى منزلى رأيت بديلى : افتح بابى فاراه جالسا فى مقعدى الكبير ! انها هلوسة بلا ريب ، ناتجة عن خوف لا أدرى كنهه ! »

بداية المأساة !

◆ فى الفترة بين سنتى ١٨٨٢ و ١٨٨٧ كتب موباسان اكثر من ٢٥٠ قصة قصيرة ، ولكنه فى سنة ١٨٨٨ لم يكتب سوى ست قصص ، اشهرها قصة (بيير وجين) ، التى تتسم بالضعف ، كما انقطع تقريبا عن موافاة الصحف بالمقالات .. ولكن عوضه عن الدخل الكبير الذى فقده ، ان قصصه بدات تترجم الى اللغات الاجنبية . ولعل سبب هذا الاجداب الادبى (كما سماه بعض النقاد) هو الكآبة التى اعترت موباسان بعد ان اشتد الضعف والهزال بوالدته ، وبعد ان تردى اخوه الصغير « هرفيه » فى هوة الديون بسبب اسرافه الاحمق الذى دفعه الى الاستدانة من كل مخلوق ، حتى اضطر موباسان الى ان يسدد عنه كل ديونه ثم يطلب اليه ان يعيش مع امهما ليرعاها ويتوفر على خدمتها ما استطاع .. ولكن .. ما لبث هرفيه ان اصيب بضربة شمس اثرت فى قواه العقلية ، او بالاحرى اتت على البقية الباقية منها ، فادخل مصحة توفى فيها فى الثالث عشر من نوفمبر سنة ١٨٨٩ ، فكانت كارثة زلزلت اعصاب امه وكادت تقضى عليها ..

كل ذلك اثر فى نفس جى دى موباسان تاثيرا بالغا ، فاصابته اضطرابات عقلية قاسية كان مظهرها صداعا شديدا فى الراس اطار النوم من عينيه وزهده فى العمل والكتابة ، بل جعل حياته جحيما لا يطاق !

وارتحل الى افريقيا مرة أخرى .. ثم عاد ليكتب بعض قصص ، من اقواها واحسنها قصة « قوى كالموت » . ولكن آلام راسه المبرحة ما لبثت ان عاودته بصورة انكى واشد ، مصحوبة باضطرابات فى المعدة وبضعف فى الذاكرة .. وبدا يضع على عينيه الكليلتين المتعبتين نظارة سوداء .. ورفض وسام «الليجيون دونير » ، كما رفض ان يتقدم لانتخابات الاكاديمية الفرنسية ، التى يحلم بعضويتها كل أديب فرنسى !

ولما زادت حالته سوءا ، كتب لوالدته المريضة : « لا تقلقى على صحتى يا اماه، فلست اعانى سوى تعب فى عينى وراسى ، وقد استشرت اخصائيا فى حالتى العصبية ففحصنى جيدا واستمع الى قصة حياتى كلها ثم قال :« بك جميع اعراض (النورستانيا) نتيجة لارهاق فى العمل العقلى ، شانك فى ذلك شان سائر الكتاب » .. والتحسن مطرد فى صحتى ولكن ليس معنى ذلك اننى شفيت تماما ، وان كان وزنى قد زاد ووجهى قد امتلأ .. وصرت اسير كل يوم على قدمى فى غابة بولونيا ، حيث توجد اركان غاية فى الهدوء والجمال . لكنى ممنوع من المشى الطويل ، لذلك اكتفى منه بالقدر الذى لا يتعبنى . اما عيناى فهما احسن قليلا ، وليس ادل على ذلك من هذا الخطاب الذى اراه اطول مما كنت احلم اننى استطيع الكتابة .. واذن فانا احس احساسا طيبا اننى استعيد صحتى » .

.. ولكنه كتب لاحدى السيدات يقول : « ان عقلى يسير فى اودية مظلمة حالكة لا ادرى الى اين تقودنى ، ولا كيف اهرب منها ، فاننى ابرح الواحد منها لاجدنى فى الآخر .. وليس فى وسعى التنبؤ بخاتمة المطاف !.. واخشى ان يحملنى الاعياء والملل فيما بعد على ان امضى فى سيرى فى هذه الطريق الهامدة !»

ومضى الى (الريفييرا) هربا من حرارة الصيف القائظ التى حذره منها الاطباء ، ولكن متاعبه تضاعفت ، فكتب الى صديقه الدكتور هنرى كازاليس يقول : « ان عقلى وجسمى تسوء حالتهما فى البر والبحر ، واحس اننى قد زايلتنى كل قوتى بعد ان استعصى على النوم اربعة ايام متوالية . والحق اننى فى حاجة ماسة الى الرياضة ، ولكنى لا اقوى على ممارسة اى نوع منها لشعورى باليأس الذى اتخبط فيه .. ثم اى رياضة تلائمنى ؟ السير ؟ السفر ؟ الى اين ؟! لقد رايت كل شىء وارفض ان ابدا ذلك كله من جديد . ان جسمى ما زال قويا ولكن راسى يزداد مرضه حتى لأشعر احيانا بما يحفزنى حفزا الى

اطلاق رصاصة عليه ! ٠٠ ان كل خطاب اكتبه اصبح جهدا مروعا ٠٠ يا الهى٠٠ لقد عشت بما فيه الكفاية ! »

وكتب عنه الاديب (هوريت) : « لقد تحرقت شوقا الى لقاء الكاتب الذى جسم لى ـ وانا فى العشرين من عمرى ـ معنى الحق ، واحسست أننى اقرب اليه منى الى فلوبير نفسه ، ولطالما فكرت فيه وفى أسمائه الارستقراطية وفى أسلوبه الساخر الساحر وفى قدرته الفذة على التحليل النفسى وتحريه الدقة ، ثم شهرته كتلميذ اثير لفلوبير ٠٠ وددت ان القاه ، فذهبت اليه وضغطت الجرس ، ففتح لى الباب خادم يرتدى بزة خاصة ، وبوجه سليط اخبرنى أن سيده ليس بالمنزل ، ولكنى كتبت بضع كلمات على بطاقتى ، ادخلت بعدها الى حجرة استقبال فاخرة تزدحم بالطنافس العربية ٠٠ ثم مالبث سيد البيت أن قدم لأتطلع اليه فى حب استطلاع جارف ، ووقفت مبهوتا ماخوذا امامه ٠ وبعد أن تبادلنا التحيات ، اختار مقعدا غاص فيه ، بينما رحت أكرر فى خاطرى اسم الرجل الذى أقدره واحبه ، وجعلت أرنو الى القامة القصيرة التى امامى ، والى الشارب الكث ، حتى سالنى فى أدب أن اجلس ٠٠ ولكن ٠٠ ما ان تطرقت الى الحديث عن الادب حتى تبدلت اساريره وتجهمت معارف وجهه ثم قال بنبرات يثقلها الحزن والاسى :

ـ أوه يا سيدى ٠٠ أرجوك أن لا تحدثنى عن الادب ، فان اعصابى متعبة وساسافر بعد يوم او اثنين الى (نيس) بأمر الطبيب ، فان هواء باريس لا يلائمنى بحال ٠٠ وكذلك هذه الضوضاء ٠٠ وهذه المثيرات ! ٠٠ انا فى الحقيقة مريض جدا هنا ٠

فابديت رثائى لحالته ثم تحدثت بسرعة ورقة محاولا أن استخلص منه ولو رايا مبهما ، فقال : « أوه ٠٠ الادب يا سيدى ٠٠ لن اتحدث عنه ٠٠ اننى أكتب فيه عندما يحلو لى ذلك ولكنى لا أتحدث عنه اطلاقا ٠٠ هذا الى اننى لا اعرف أحدا من الادباء عدا صديقين منهم هما « زولا » و « كنكور » ، ويندر أن اراهما ، ولن اقابل غيرهما ٠٠ كما أعرف « ديماس الصغير » ولكننا لسنا من مهنة واحدة ! »

واستؤذن فى اظهار بعض قصصه على المسرح فقال : « لن أسمح بعمل تمثيليات من كتبى ، ولا افهم كيف يقترحون ذلك على مؤلفين وكتاب يحترمون فنهم ؟! ان طبيعة القصة غير طبيعة المسرحية بحيث تضيع قيمة كل منهما اذا حولت الى الاخرى ٠٠ ان قوة القصة تكمن فى الجو الذى خلقه المؤلف وفى الاسلوب وفى التركيب ، فكيف نضع فى مكان كل هذه الاشياء اصوات ممثلين وممثلات من الدرجة الثالثة ٠٠ ومسرحا بعيدا كل البعد عن اعطاء الاثر الذى يرمى اليه المؤلف ؟! »

الميتة الأولى !

◆ فى ٨ ديسمبر سنة ١٨٩١ ، كتب « ادمون دى جونكور » فى مذكراته : « يقال ان موباسان يعانى من اوهام العظمة ، فهو يظن انه منح لقب « كونت » ويصر على ان يخاطب بهذا اللقب ! ويقول الكثيرون انه بدا يتردد فى كلامه ، كما سمع وهو يتحدث عن زيارة قام بها لامير البحر « دوبريه » الذى اطلق عددا من المدافع تحية « للكونت موباسان » ! .. تحية كلفت الاسطول مئات الالوف من الفرنكات !! »

وكتب موباسان نفسه لاحد اطبائه يقول : « ان جسمى كله ـ لحمى وجلدى ـ قد نقع فى ملح ، فلم يعد لى لعاب لأن الملح جففه تماما ! .. اظن أن هذه هى بداية النهاية .. ان راسى يؤلمنى ألما مبرحا يجعلنى اضغطه بين يدى فاشعر بانه راس ميت »

وخيل اليه ذات يوم انه راى شبحا فى الطريق القريب من المقابر .. وانتابته نوبة من السعال ، فقال لوصيفه : « ان شريحة صغيرة من السمك أكلتها قد هبطت الى رئتى وقد تفضى الى موتى ! » .. واصبح لا يسيطر على ساقيه ، يرفع احداهما اكثر مما يجب او ينزلها بسرعة عجيبة ! ولقد نبه الاطباء وصيفه الى ان عقل سيده فى خطر ، ولكنهم لم يشاءوا أن يقيدوا حركاته ، بل كانوا يمازحونه ويتبادلون معه رواية القصص والنوادر .. ومع ذلك ، كان موباسان يعلم ان النهاية قد دنت ، فكتب الى كازاليس يقول : « لقد ضعت تماما .. اننى اموت .. لقد غسلت مسالك انفى بمياه ملحة نفذت الى مخى ونخرت فيه فاخذ يسيل فى كل ليلة خلال انفى وفمى ! .. اننى مجنون وراسى يهذى ، فوداعا يا صديقي لأنك لن ترانى مرة أخرى ! »

خطاب من مجنون

◆ وقد كتب لطبيبه بعد يومين رسالة مستفيضة تكشف عن مدى لوثتهفقال:

عزيزى الدكتور :

« اننى اضع نفسى بين يديك فافعل بي ما تشاء !.. سأروى لك بكل صراحة حالتى العقلية العجيبة لتقرر ما اذا كان يحسن ان تعنى بى بعض الوقت فى احدى المصحات او تتركنى نهبا للهلوسة والآلام المبرحة .. وها هى ذى فى اسهاب ودقة قصة مرضى الروحى العجيب :

« اعتدت ان أعيش كأى انسان آخر يتطلع الى الحياة بعينين فاغرتين عمياوين دون تساؤل او فهم ، وعشت كما تعيش الحيوانات وكما نعيش جميعا ونؤدى وظائف الوجود ، ظانين ـ كما ظننت ـ اننا نعرف وندرك ما يحيط بنا .. الى ان تبين لى يوما ان كل شىء زائف !.. وكانت عبارة قالها « مونتسكيو » هى

التى اضاءت عقلى ، وقد جاء فيها : « ان عضوا أو اكثر فى تركيبنا الآلى هو الذى يخلق فينا ذكاء خاصا ٠٠ وقصارى القول ان القوانين القائمة على اساس تركيبنا الآلى يمكن ان تتغير بتغير هذا التركيب »

« ولقد فكرت فى هذه العبارة شهورا وشهورا وشهورا ، وبالتدريج نفذ الى نفسى صفاء عجيب ، ولكن هذا الصفاء نشر الظلام حولى !٠٠ حقا ان اعضاءنا هى الوسيط الوحيد بين العالم الخارجى وانفسنا ، أى ان وجودنا الداخلى يتصل عن طريق شبكة من الاعصاب بالوجود الخارجى الذى يتالف منه العالم ٠ وغنى عن الذكر ان فشلنا فى فهم هذا الوجود الخارجى يرجع الى نسبه وابعاده التى لا تحصى ، والى اصوله ومستقبله ونهاياته ، والى اشكاله البعيدة ومظاهره التى لا تحد ٠٠ ولذلك فان اعضاءنا تمدنا بمعلومات غير أكيدة لانها مبعثرة ٠٠ غير أكيدة لان خواص اعضائنا هى وحدها التى تقرر لنا خواص المادة الظاهرة ٠٠ ومبعثرة لان حواسنا خمس ومجالها ضيق وطبيعة كشفها للاشياء محدودة !

« دعنى اوضح لك ما غمض : ان العين تدلنا على الابعاد والاحجام والاشكال والالوان ، ولكنها تخدعنا فى هذه كلها ، لانها لا تستطيع سوى الكشف عن الاشياء والكائنات المتوسطة الاحجام بالنسبة لاحجامنا البشرية ، وبذلك تجعلنا نستعمل كلمة (كبير) لبعض الاشياء وكلمة (صغير) لأشياء اخرى ، لان ضعف العين لا يسمح لها بان تدرك ما هو شاسع جدا بالنسبة اليها أو ما هو دقيق جدا عليها ، ونتيجة ذلك انها لا تكاد تدرك أو ترى شيئا ، وان العالم كله يظل محجوبا عنها خفيا عليها ٠٠ اما لو اوتيت العين مئات ملايين قوتها العادية وكان فى وسعها ان ترى فى الهواء الذى نستنشقه كل اجناس الكائنات الخافية ، وسكان الكواكب التى تجاورنا ٠٠ لو تاتى ذلك للعين لرات هنـــاك اجناسا لا حد لها من الكائنات الصغرى ومن العوالم البعيدة التى لا يمتد اليها البصر !

« وهكذا كل افكارنا عن النسبة زائفة لانه لا يوجد حد للكبير والصغير ، ولا قيمة لتقديرنا للابعاد والحجوم لانها من تقرير عضو واحد وبالمقارنة الدائمة بانفسنا ٠٠ اضف الى ذلك ان العين تعجز كذلك عن رؤية الشفاف من الاشياء وتخدعها صفحة صافية من الزجاج فتخلط بينها وبين الهواء الذى لا تراه ايضا !

« والآن فلننتقل الى الالوان : ان اللون موجود لان عيننا مركبة بحيث تنقل الى المخ ــ على شكل لون ــ مختلف الوسائل التى تمتص بها الاجسام اشعة الضوء وتحللها ٠٠ ومن اختلاف درجات هذا الامتصاص وهذا التحليل تتكون الظلال والالوان ٠ وهكذا يفرض هذا العضو على العقل طريقة الرؤية وبالاحرى تسجيل الابعاد وتقدير العلاقات بين الضوء والمادة ٠

« والآن فلندرس السمع : نحن مخلوقات غريرة ، ودمى ، فى مدى علمنا بهذا العضو الهوائى . ان ارتطام جسمين ينتج عنه اضطراب خاص فى الجو .. وهذه الحركة تذبذب فى آذننا غشاء صغيرا فتتبدل فى الحال الى صوت هو فى الحقيقة مجرد ذبذبة . ان الطبيعة خرساء ولكن طبلة الاذن لها خاصية خارقة تنقل الينا فى شكل احساس ـ يختلف باختلاف الذبذبات ـ كل اهتزازات أمواج الفضاء الخفية ! وهذا التحول بوساطة عصب السمع فى المرحلة القصيرة من الاذن الى المخ يمكننا من خلق فن عجيب هو الموسيقى التى تعتبر أدق الفنون وأكثرها شاعرية ، وفيها ابهام الاحلام ودقة الجبر !

« ثم ماذا نقول عن الذوق والشم ؟ هل كنا نعرف طعم ونوع الاطعمة لولا خواص الانف والحلق ؟ ورغم ذلك ، استطاعت الانسانية أن تعيش بلا سمع او ذوق أو شم .. أى دون أى فكرة عن الصوت والطعم والرائحة ! وهكذا لو كانت اعضاؤنا اقل مما هى عليه الآن لجهلنا أشياء نعجب بها ونعجب لها ، اما لو كانت اعضاؤنا اكثر لاكتشفنا حولنا اشياء لا حصر لها لا يتطرق اليها الشك بسبب افتقارنا الى وسائل تأكيدها .

« وهكذا نحن مخدوعون حين نحكم على ما نعرفه ، ونحن محاطون باشياء لم تكتشف بعد ولا نعلم عنها قليلا أو كثيرا .. وهكذا كل شيء غير مؤكد ويمكن تأويله بشتى الطرق .. نعم كل شيء زائف ، وكل شيء محتمل ، وكل شيء يبعث بالمثل على الشك والريب ! .. دعنا نقرر حقيقة القول القديم المأثور : « ما هو حقيقى فى جانب من جبال البرانس ، زائف فى الجانب الآخر » ثم دعنا نقل : « ما هو حقيقى على الارض زائف فيما هو أبعد منها » .. ومن هذا نستدل على الاسرار التى ما زالت خافية ، كسر الكهرباء ، والتنويم المغناطيسى ، ونقل الافكار ، والايحاء ، وكل الظواهر المغناطيسية الخافية علينا ، لا لسبب سوى ان الطبيعة لم تزودنا بعد بالعضو أو الاعضاء اللازمة لفهمها !

« وبعد ان اقنعت نفسى بان كل شيء تكشف لى عنه حواسى انما هو موجود كما أراه ، بالنسبة لى فقط ، ولكنه قد يختلف بالنسبة لكائن آخر يختلف فى تركيبه عنى ، وبعد أن استنتجت ان انسانية تختلف عن هذه الانسانية سيكون لها آراء فى العالم والحياة وكل شيء تتعارض كلية مع آرائنا ـ لان اتفاق العقائد يتأتى فقط من تشابه الاعضاء ، ولان تفاوت الرأى يتأتى كذلك من الاختلافات الضئيلة فى وظائف الاجهزة العصبية ـ بعد ذلك كله ، بذلت جهدا فكريا فوق طاقة البشر لانفذ الى العالم الذى حولى !

« ترى هل جننت ؟

« قلت لنفسى : انا محوط باشياء مجهولة .. وقد فكرت فى رجل بلا

اذنين ، لا يدرك طبيعة او مصادر الصوت ، ففشينى الخوف من كل شىء حولى .. خفت الهواء وخفت الليل .. وقلت : ماذا تبقى اذا جهلنا كل شىء واصبح كل شىء لا حد له ؟ لا شىء سوى العدم .. أليس كذلك ؟ وماذا فى هذا العدم الظاهر ؟! .. ان هذا الرعب المضطرب من خوارق الطبيعة ، وقد غشى الجنس البشرى منذ مولد العالم .. وسيظل ما بقيت هناك أشياء تخفى علينا !

« وعندئذ تملكنى الفزع ، اذ خيل الى أننى أوشك أن اكتشف سر الكون !.. حاولت ان ارهف أعضائى ، ان أثيرها لأجعلها ترى المحجوب ، وقلت لنفسى : « كل شىء كائن .. والصرخة التى تعبر الهواء « كائن » بالنسبة للحيوان ، ما دامت تولد وتتحرك وتتشكل ثم تموت وتتبدد .. وهكذا ليس مخطئا هذا العقل المروع الذى يؤمن بوجود الكائنات غير المادية .. فما هى الكائنات ؟

« كم من رجل تنبأ بها وارتعد لاقترابها وارتجف لمجرد الاتصال بطيفها ! اننا نشعر بها قريبة منا .. فيما حولنا .. ولكننا لا نقوى على تمييزها لاننا لا نملك العين التى تستطيع ان تراها وبالاحرى لا نملك العضو المجهول الذى يستطيع كشف امرها وهتك حجابها ..

« وعندئذ شعرت بها اكثر من اى انسان آخر . شعرت بهذه الخوارق التى تمر بى دون ان ادرى هل هى كائنات او اسرار .. او ادرى ما هى ، ولكننى استطيع دائما ان ادرك وجودها ، بل لقد رايت .. رايت كائنا خفيا على قدر ما يتسنى لانسان ان يرى مثل هذه الاشياء ، وقضيت ليالى كاملة جالسا الى منضدتى وانا افكر فيها دون ان اتحرك او اريم ، وراسى بين يدى .. بل اعتقدت احيانا ان يدا خفية او جسما لا يدرك يحوم فوق راسى ، فلم احاول ان المسه لانه ليس كائنا ذا لحم وشحم ، ولكنه جوهر غير معروف ..

« وذات ليلة .. سمعت أرض غرفتى تصر خلفى بطريقة عجيبة ، فارتعدت مفاصلى واستدرت دون ان ارى شيئا .. فلم افكر فى الامر مرة اخرى . ولكن ، فى الليلة التالية ، وفى نفس الساعة ، سمعت نفس الصوت ، وبلغ بى الرعب حدا جعلنى اقف واثقا .. واثقا انى لست وحدى فى الغرفة ! ولكنى لم ار شيئا ، وكان الهواء رائقا صافيا شفافا فيما حولى ، وقد اضاء مصباح كل ركن فى الحجرة

« ولم يعد الصوت مرة اخرى ، فهدأ جاشى تدريجا ، وان ظللت قلقا التفت من آن الى آخر . وفى الليلة التاليــة اويت الى حجرتى فى ساعة مبكرة ، اتساءل كيف اوفق الى رؤية « غير المنظور » الذى يزورنى ، فرايته وكدت اموت من الهلع !.. كنت قد اضأت كل الشموع على رف المدفأة ، وفى الشمعدان ، وسطعت الحجرة بالانوار كأنما اعدت لوليمة . وكانت شمعتان تشتعلان على منضدتى ، وأمامى فراشى القديم ذو الاربعة الاعمدة من خشب البلوط ، والى

يمينى المدفأة ، والى يسارى الباب الذى أغلقته بالمفتاح ، وورائى صوان ضخم بالغ الضخامة ، له ابواب من المرايا . وتطلعت الى نفسى لحظة فى المرآة ، فبدت لى عيناى غريبتين وقد اتسعت حدقتاهما اتساعا كبيرا .. ثم جلست الى منضدتى كالعادة ، انتظر !

« وكان الصوت قد ارتفع فى الليالى السابقة فى الساعة التاسعة والدقيقة ٢٢ ، فانتظرت حتى اذا جاءت اللحظة تماما شعرت باحساس يجل عن الوصف .. كانما نفذ سائل ، لا يقاوم ، الى كل جزء فى جسمى ، مغرقا روحى فى فزع مؤلم ولذيذ معا . واحدثت الارض صريرها من ورائى فوثبت واستدرت بسرعة كدت معها ان اقع !.. ولكن كان كل شىء صافيا واضحا وضوح النهار ، ولم ار نفسى فى المرآة ! بل وجدتها خاوية لامعة مليئة بالانوار ! ولم اكن فيها ، رغم اننى كنت امامها مباشرة ، فحملقت فيها وقد استبد بى الذعر ، دون ان اجرؤ على الاقتراب منها ، لاننى كنت واثقا تمام الثقة انه كان بيننا .. ذلك الخفى .. وانه كان يحجبنى عن المرآة !

« ما كان اشد رعبى اذ ذاك !.

« ثم بدات ارى نفسى كاننى وسط ضباب ، رايتنى فى اعماق المرآة كما لو كنت فى ماء ! وبدا لى ان هذا الماء ينزلق من اليسار الى اليمين فى بطء وعلى مهل ، لتظهر صورتى اوضح وادق ما بين لحظة واخرى .. كان ذلك اشبه بنهاية الخوف ، ولم يكن لما يحجبنى خطوط محددة ، ولكنه كان اشبه شىء بشفافية معتمة راحت تتجلى رويدا رويدا .. واخيرا ، استطعت ان ارى نفسى كاملا كما اراني كلما تطلعت عادة الى المرآة فى كل يوم ..

« اذن فقد رايته ! ولم اره مرة اخرى بعد ذلك ، ولكنى فى انتظاره . واحس باننى اختبل والتاث واتافى هذا الانتظار .. فاننى اقضى الساعات والليالى والايام امام مرآتى اترقبه ، ولكنه لا ياتى !

« كنت اعلم اننى رايته ولكنى اشعر باننى سوف اظل دائما فى انتظاره ، حتى يدركنى الموت .. واننى سانتظر امام المرآة بلا راحة ، اشبه بصياد يترقب . وفى تلك المرآة بدات ارى صورا مجنونة ، ووحوشا ، وجثثا دميمة ، وكل انواع الحيوانات المخيفة والكائنات المرعبة ، وكل الرؤى التى تغشى عقول المجانين !

« هذا اعترافى يا دكتور ، فقل لى ما يجب ان اعمله :: »

وداعا .. موباسان !

◆ ومات موباسان مرة اخرى فى عيون اصدقائه عندما نقل الى باريس فى قميص المجانين ! ولم تقو والدته على زيارته فى مستشفى المجاذيب خشية ان تنهار ويغمى عليها عندما تراه على تلك الحال . وقد عانت فى مارس نوبات

هستيريا حاولت فيها أن تنتحر بصبغة الافيون ، ثم بخنق نفسها بشعرها .. ولكنها ما لبثت أن شفيت تدريجا وعادت لتستانف حياتها العادية ، وان تضاعفت وساوسها وتزايد اكتئابها ..

اما موباسان فازدادت حالته سوءا كل يوم ، واصيب بالفالج نتيجة لمرض الزهرى الذى بلغ آخر مراحله .. واخيرا دب الموت الى جسمه فى ٦ يوليه سنة ١٨٩٣ ، ودفن فى مقبرة « مونبارناس » . وظلت الصحف ترثيه اذ تنعيه ، وراح الادباء يشيدون بمؤلفاته ، ولكن خير ما قيل فيه تلك الكلمات البليغة التى رثاه بها « زولا » وهو واقف الى قبره :

« ان أثره فينا ــ نحن الذين كنا نرقب موباسان (الشاب) باهتمام وعطف ــ هو السرعة التى غزا بها قلوب الجماهير ، فقد كان عليه فقط ان يظهر ويروى قصصه ليحبه على الفور كل انسان . لقد غدا ذائع الصيت بين يوم وليلة ، ويبدو ان الحظ الباسم قد اخذ بيده متلهفا على ان يقوده الى اعلى ما يريد ان يرتفع . والواقع اننى لا اعرف مثلا آخر لمثل هذه البدايات السعيدة ومثل هذا النجاح الفجائى الذى اتفقت عليه الآراء بالاجماع ، فقد تقبل القراء كل ما كتبه .. وتقبلوا بالرضى والابتسام ما كان يمكن ان يصدم مشاعرهم لو جاء من انسان غيره ... ذلك لانه ارضى كل ضروب الذكاء ، ولمس بسحره كل الوان الحساسية ، وابدى موهبة قوية صريحة دون ان يبدى اى تراجع فيما يعتقد ، ومع ذلك فقد استحوذ على اعجاب وحب جمهرة القراء التى تحمل الفنانين الاصيلين على ان يدفعوا غاليا ثمن ازدهارهم ! »

والحق ان موباسان شغل مكانة كبيرة فى قلوب الفرنسيين لان الروح الفرنسية وجدت فيه المواهب والصفات الخالقة ، ولان جميع الفرنسيين فهموه لصفائه ، وبساطته ، واعتداله ، وقوته ، وطيبته الضاحكة ، وسخريته العميقة التى لم تكن خلوا من العطف والاشفاق ، ولقد افاد بلا ريب من أسلافه « رابليه » و « مونتين » و « موليير » و « لافونتين » ، الذين اضاءوا آفاق الادب الفرنسى . ولقد حمد الفرنسيون لهذا الكاتب ــ رغم ما جبل عليه من تشاؤم ــ انه منحهم ، بصفاء مؤلفاته ، شعورا بهيجا بالقوة والحياة الممتعة ..

وفى سنة ١٩٠٠ اقيم له اثر خالد فى (روان) ، ودعيت والدته لرفع الستار عنه ، فاعتذرت من عدم الحضور بسبب مرضها وحزنها .. فقد انطفا نور عينيها تقريبا ، وعاشت فى (نيس) فى فيللا مسدولة الستائر على الدوام ! وراح طبيبها الخاص يعودها كل يوم .. حتى اذا بلغت الثامنة والثمانين من عمرها ، اصيبت بالتهاب رئوى ثم لحقت بولدها الخالد فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٠٣

الفصل الأول

• ظل المطر طيلة الليل يقرع السقف والنوافذ ، وكأنما انفجرت السماء فأخذت تفرغ ما فى جوفها على الأرض ، فتذيب تربتها ٠٠ وكانت ثمة نوبات خاطفة من السيل ، ومن خرير البالوعات ـ التى اترعت وفاضت ـ يملأ الطرقات المهجورة ٠٠ بل ان البيوت نفسها امتصت البلل ـ كالاسفنج ـ فتخلل جدرانها وترك عليها آثار الرطوبة ، من أسفل طبقات البنايات حتى أعاليها ٠٠

وفرغت « جان » من حزم متاعها ، فاتجهت الى النافذة ٠٠ واذا المطر لم ينقطع بعد !٠٠ **كانت قد غادرت الدير فى اليوم**

السابق ، وقد غدت أخيرا حرة ، تواقة الى الاستمتاع بالسعادة التى طالما حلمت بها ٠٠ فاذا بها تخشى الآن ان يرجىء أبوها رحيلهما ما لم يصبح الجو صافيا !

وراحت تتأمل الافق للمرة المائة فى ذلك الصباح ٠٠ وفجأة ، لاحظت انها نسيت أن تحزم التقويم مع متاعها ، فانتزعته عن الحائط ٠٠ وكانت سنة ١٨١٩ مكتوبة عليه بأرقام من ذهب ، فتناولت قلمها وشطبت الصفوف الاربعة الاولى من التقويم ، راسمة على كل يوم خطا ، حتى بلغت اليوم الثانى من مايو ٠٠ يوم غادرت الدير !

ونادها صوت من خارج الباب : « جانيت ! »

فأجابت جان : « ادخل يا أبت »

كان البارون « سيمون ـ جاك لوبارتوى دى فود » سيدا غريب الاطوار ، طيب القلب ، من أبناء المدرسة القديمة ، وقد أوتى ـ كتلميذ متحمس لروسو ـ حبا مرهفا للطبيعة ومخلوقاتها ٠ وكان يكره بغريزته عام ١٧٩٣ ـ الذى سيطر فيه على فرنسا حكم الارهاب ، واضطهاد النبلاء ـ لانه كان أرستقراطيا بمولده ٠٠ لكنه كان ذا ميول فلسفية بطبعه ، وكان ـ بتأثير تعليمه ـ من أنصار التحرر ، فكره الطغيان وأضمر له حقدا شديدا ، وان بدآ فى الظاهر متخاذلا ٠٠ فلقد كانت فضيلته الكبرى ، هي فى الوقت نفسه عيبه الاكبر أيضا ، وهى طبيعته المتناهية فى الطيبة ، التى لم تبلغ بعد من الرحابة ما يمكنها من أن تشمل كل ما كان يرغب فى أن تشمله ٠ كانت طبيعة شخص مجدد ، مبتكر ، لكنه عاجز بفطرته عن المقاومة الفعالة ٠٠ ومن ثم كانت طيبته هذه من وجهة النظر العملية ٠٠ رذيلة !

كذلك كان البارون من أصحاب النظريات ، وقد وضع لتربية ابنته خطة محكمة ، تهدف الى أن تجعل منها امرأة

سعيدة ، مستقيمة ، متزنة ، كريمة ٠٠ فعاشت فى البيت حتى بلغت الثانيـــة عشرة ، ثم أرسـلها الى دير (القلب المقـدس) ـ « الساكريكير » ـ رغم احتجاجات امها ٠٠ فحبست هناك عن العالم ، وتركت فى جهـل بكافة الامور الدنيوية ، اذ أراد والدها أن تعود اليه في سن السابعـة عشرة كاملة الطهر والعفة ، فيشرع عنـدئذ ـ بنفسه ـ فى تنبيه روحها الغافيـة وتنويرها « على يده » : يغرقهـا فى بحور الشعر ، ويصطحبها فى خروجه لترى الطبيعة وتتملاها بنفسها ، ويريها القوانين البسيطة التى تسوّد مملكة الحياة ، والقوانين الرصينة التى تسير عليها الحياة الطبيعية ٠٠

٠٠ وخلفت«جان» الدير مشرقة، تواقة ، متعطشةالىاللهو والى المغامرات التى كانت تحلم بها فى يقظتها فى الليـالى الطويلة ، والايام البطيئة المرور فى الدير ٠٠

وكانت تبدو أشبه بلوحة فنية : بشعرها الذى كان لمعانه يلوح كأنه منعكس على بشرتها ٠٠ البشرة المشوبة بصـبغة وردية ، تتخللها ظلال بنية اللون ناعمة ، شاحبة حين تمسها الشمس ٠٠ وكانت زرقة عينيها البراقتين ، أقرب الى اللون الذى يستعمله رسامو هولندا فى لوحاتهم ٠ كما كانت لهـا شامتان دقيقتان جميلتـان على وجهها ٠٠ وكانت طويلة ، ناضجة القوام ، ذات ثديين تكتنفهما الغواية ٠٠ وكانت فى صوتها نغمة حادة بسيطة ، بيد أن ضحكتها الساذجة كانت تبعث عدوى الضحك فى السامعين ٠٠ وكثيراً ما كانت تعمد الى حركة ألفتها ، فترفع أصابعها الى فوديها ، وكأنها تسوى شعرها ٠٠

★ ★ ★

◆ وهرعت الى أبيها فقبلته ، وسألتـه : « امتأهب أنت للسفر ؟ »

فضحك حتى اهتز شعره الاشيب الطويل ، وأشار الى النافذة قائلا : « كيف تساورك الرغبة فى السفر فى جو كهذا ؟ »

فقالت فى لهجة متملقة : « من فضلك يا أبى .. أرجو أن تسمح لنا بالسفر .. ان الجو سيغدو بعد الظهر صحوا »

– ولكن أمك لن توافق على هذا قط !

– بل أنا واثقة من أنها ستوافق .. وسأكون الملومة اذا حدث ما يدعو للوم ..

وأسرعت « جان » الى غرفة امها .. فلقد طال ارتقابها لهذا اليوم ، ولهذه البداية الجديدة ، اذ أنها لم تغادر (روان) مذ دخلت الدير ، لان أباها لم يشأ ان تشغل بشىء حتى بلغت السن التى حددها فى خطته .. وها هى ذى راحلة لتقضى الصيف فى ضيعة « شجر الحور » .. ضيعة الاسرة العريقة ، القائمة على تل مشرف على شاطىء البحر فى (ايبور) . وكانت تتطلع ملهوفة لهذه الزيارة ، اذ كان المقدر أن تغدو هذه الضيعة لها ، حتى اذا ما تزوجت اقامت فيها .. ولم يعكر صفو حياتها الجديدة بعد سوى هذا المطر الذى يأبى ان ينتهى !

وأقبلت بعد ثلاث دقائق تهرع من غرفة أمها ، صائحة بأبيها : « أبت .. ان أمى موافقة ، فمر بالخيل أن تسرج .. »

والى أن اقتيدت العربة الى الباب ، كان المطر قد ازداد عن ذى قبل !.. وبينما كانت « جان » تتأهب للركوب فيها ، أقبلت أمها تهبط السلم مستندة الى زوجها ، والى وصيفة طويلة القامة ، ممشوقة كالرجل ، تدعى «روزالى» .. وكانت هذه الوصيفة من بنات الشمال ، من « كو » ، تبدو أكبر من سنى عمرها الثمانى عشرة بعدة سنوات .. واذ كانت أختا لجان فى الرضاع ، فقد كانت تعامل كانها ابنة ثانية للاسرة

.. فكان واجبها الاكبر ان تساعد البارونة، لاسيما فى السير، بعد أن ازدادت سمنة وضخامة ، فى السنوات القلائل الاخيرة ، نتيجة مرض فى القلب كانت لا تفتأ تشكو منه

وبلغت البارونة الدرجات السفلى من السلم وهى تلهث ، ورمقت المطر المتدفق فى امتعاض ، ثم قالت : « هذا تصرف أخرق »

فابتسم البارون وقال : « أنت التى رغبت فيه يا مدام أدليد »

وكان البارون يقرن اسمها « ادليد » دائما بلقب « مدام » ، فى احترام يكاد يبعث على السخرية ـ بعض الشىء ـ لانه كان يراه اسما مقترنا بالابهة والزهو ..

وصعدت « مدام ادليد » الى العربة ، فانبعث لزنبركات العربة صرير ! وجلس البارون الى جوار زوجته ، كما جلست « جان » و « روزالى » فى المقعد المواجه ، وظهراهما للجياد .. وأحضرت « لودفين » الطاهية عددا من الاوشحة نشرها المسافرون على ركبهم.. كما أحضرت سلتين وضعتا تحت أرجل الراكبين ، ثم صعدت الى المقعد المجاور لسيمون ـ الحوذى المسن ـ ولفت نفسها فى « بطانية » كبيرة .. وأقبل حارس الباب وزوجته يودعانهم ، ويتلقيان الاوامر الاخيرة بشأن المتاع الذى كان سيرسل بعد رحيلهم ..

★ ★ ★

◆ **وبدأوا** رحلتهم أخيرا ، فانكمش الحوذى فى سترته الواسعة ، وقلنسوته الثلاثية الشكل .. بينما كانت العاصفة تصفع نوافذ العربة ، وتغرق بمطرها الطريق ..

وبلغت العربة أخيرا أرصفة الميناء ، حيث رسا صف من السفن ، وقد أشرأبت صواريها فى اكتئاب نحو السماء الرطبة ، كأشجار فاقدة الحياة .. وتجاوزتها العربة ، ثم

انعطفت الى طريق « مون ريبوديه » ، وسرعان ما بلغت سهلا مكسوا بالمروج ، واستطاع الركاب أن يروا بين حين وآخر صفصافة مبتلة وقد انحنت نحو الارض مثقلة ٠٠ وكانت حوافر الفرسين تخوض فى الماء ، والعجلات تشق الوحل ٠٠

ولم يكثر الركاب من الحديث ، وكأنما كانت عقولهم كالارض مخضلة بالماء ، فأسندت البارونة رأسها الى ظهر المقعد ونامت ٠٠ وأخذ البارون يحدق بنظرات خاوية فى المروج المتوالية المستكينة للماء ٠٠ واستغرقت « روزالى » فى أحلام اليقظة وقد أمسكت بحزمة من المتاع فى حجرها ٠٠ أما « جان » فكان تأثرها بالسيل الدافق مختلفا ، اذ أحست بما يحس به النبات الذى طال حبسه ثم رد فجأة الى الهواء والنور ، فذادت عنها هناءتها كل اكتئاب ٠٠ بل تمنت لو تغنى ، أو تمد يدها لتجمع ماء المطر وتشربه ٠٠ وطابت لها مشاهدة المناظر الطبيعية ، كما لذ لها ركوب العربة والجوادان منطلقان بأقصى سرعتهما ٠٠ وأحست فى وسط كل هذا بطمأنينة ٠ وكان الماء ينزلق على ظهرى الحصانين

واذ استغرقت البارونة فى النوم ، غاص وجهها تدريجا فى وسائد ناعمة من لحم ذقنها المترهل ، وقد استراح فوق صدرها ، وأحاطت به ست خصلات ملفوفة من شعرها ٠٠ وأخذ رأسها يعلو ويهبط مع أنفاسها ، ووجنتاها تنتفخان وتفرغان وهى تغط ٠٠ ومال البارون نحوها ، ثم وضع برفق كيسا جلديا صغيرا فى يديها المنقبضتين ٠ وأيقظتها لمسته فى الحال ، وحدقت فى الكيس فى حيرة من أفاقت من أحلام متواصلة ٠٠ ووقع الكيس على الارض ، وانفتح ، فتناثرت العملات الذهبية وأوراق النقد ، فنبه هذا البارونة تماما ٠٠ وضحكت « جان » فجأة بصوت عال

وجمع البارون النقود ، فوضعها على ركبتى زوجته وقال : « هذا يا عزيزتى كل ما تبقى من مزرعتى فى « اليتو » ·· فقد بعتها لأصلح ضيعة « شجر الحور » ، حيث سنطيل الاقامة فى المستقبل »

وعدت البارونة الفرنكات الستة آلاف والاربعمائة ، ثم دستها فى جيبها ·· كانت تلك تاسع مزرعة – من ٣١ منحهما اياها أبواهما – يبيعانها لمثل هذا الغرض ·· على أنهما كانا يستمعتان رغم ذلك بدخل يبلغ حوالى عشرين ألفا من الفرنكات ، كان يمكن أن يصل الى ما يقرب من ثلاثين ألفا لو وجدت الاراضى ادارة قديرة ·· وكان خليقا بهذا الدخل أن يكفيهما اذا هما اعتدلا فى حياتهما ، لولا ما جبلا عليه من سخاء يبذلانه عن طيب خاطر ، فتتبخر النقود من حوزتهما كما تبخر الشمس ماء المستنقع ·· وتتسرب من أيديهما ببساطة ، دون أن يدرك أى منهما كيف تسربت !

وكثيرا ما كان الواحد منهما يقول : « لست أدرى كيف حدث هذا ·· لقد انفقت مائة فرنك اليوم دون أن ابتاع فى الواقع شيئا يذكر ! »

على ان كرمهما كان منبع مسرة لهما ، وكانا على اتفاق تام فى هذا الوجه من وجوه الانفاق ··

وتساءلت « جان » : « ألا يزال « بيتى » أنيقا ؟ »

وكانت لهجة البارون مرحة وهو يجيب : « سترين يا صغيرتى »

وخفت حدة العاصفة رويدا ، حتى لم يعد هناك سوى ضباب خفيف ، ورذاذ رفيع كالتراب ·· وأخذت طبقة السحب الكثيفة ترتفع ويصفو لونها ·· وبغتة ، سقط على المروج خيط طويل مائل من شعاع الشمس ، وظهرت رقعة شاسعة من السماء الزرقاء ·· ثم تبددت سحب العاصفة عن آخرها ،

كقناع أزيح ، وتكشفت للمسافرين سماء لازوردية جميلة ، صافية ، لا تعكرها شائبة • وتناهت اليهم نفحة منعشة من نسيم عليل ، وكأنها زفرة الارتيـــاح تنبعث من الارض ، واستطاعوا أن يسمعوا من آونة لأخرى ـ وهم يمرون بقرب الغابات ـ شدو طائر طروب ينفض البلل عن جناحيه • وما لبث المساء ان هبط ، فنـــام الجميع ، عدا « جان » • • وتوقفت العربة مرتين ، عنـــد فندقين ريفيين على جانب الطريق ، لتتيح للجوادين راحة وغذاء

وكانت الشمس قد غربت ، وانبعثت أصوات الاجراس رقيقة ، من بعيد •• وفى احدى القرى الصغيرة ، شرع الاهالى يوقدون مصابيحهم •• وتألقت السماء بما لا حصر له من النجوم الصغيرة • وأخذت البيوت المضاءة تلوح من آن لآخر على طول الطريق ، تخرق ظلال الليل بوميض من لهب أبيض •• وفجأة ، أشرق القمر من وراء تل بين حشد من أشجار « الشربين » ، شديد الحمرة ، هائل الحجم ، كأنما كان يثقله النعاس

وصار الجو بديعا ، حتى انهم خفضوا مصـــاريع نوافـــذ العربة ، واسترخت « جان » فى مجلسها وقد أتعبها كل ما كان يدور بخلدها من احــــلام وآراء مثيرة • وكانت تحس بين حين وآخر بذلك التخدير الذى يسرى فى الجسم من طول الجلوس فى وضع واحد ، فتفتح عينيها ، وتنظر خلال النافذة ، لترى أشجار مزرعة على جانب الطريق ، تحت ضوء القمر ، أو أبقارا مستلقية هنا وهناك فى أحد الحقول •• وتغير من وضعها ، وتحاول ان تنام ، ولكن دوران عجلات العربة المســـتمر كان يبعث دويا فى أذنيها ، وكللا فى رأسها •• فأخذت تشعر كأن روحها وجسدها قد رزحا تحت عبء الارهاق •

وعندما استيقظت ، تبينت ان العربة قد توقفت ، وان جمعا من الرجال والنساء قد تجمعوا امام بابها وفى ايديهم مصابيح ، فنزلت « جان » مسرعة ، وحمل ابوها و « روزالى » البارونة حملا ، وهى لا تفتأ تردد بصوت رفيع ، واهن : « أواه يا الهى !٠٠ يا ابنائى المساكين ! » ٠٠ وابت ان تتناول طعاما او شرابا ، وأوت الى مخدعها فورا ، فلم تلبث ان راحت فى سبات ٠٠

وتناولت « جان » وابوها العشاء معا ، وهما يتبادلان الابتسام على المائدة ، وقد تشابكت يداهما ٠ ثم اعتراهما سرور صبيانى ، فشرعا يتفقدان المنزل الذى تم اصلاحه

كان من صروح اقليم (نورماندى) العالية ، الواسعة ، وقد شيد من الحجر الذى استحال بياضه الى لون رمادى ٠ فكان مزيجا من بيوت الريف والقلاع ، يتسع لايواء عشيرة كاملة ٠٠ وكان ثمة بهو هائل يشطره الى قسمين ، ويمتد بطول البيت ، منتهيا عند طرفيه بواجهتين عظيمتين ٠ وكان المدخل يفضى الى سلم ذى فرعين ، يلتقيان فيما يشبه الجسر عند الطابق الثانى ٠ والى اليمين ـ فى الطابق الارضى ـ غرفة استقبال ذات اتساع غير عادى ، تزينها ستائر عليها نقوش من طيور واوراق شجر ٠٠ وقد كسى الاثاث جميعه بقماش نقشت عليه رسوم قصص « لافونتين » الخرافية ، فأحست « جان » بهزة ابتهاج عند رؤية مقعد قديم كانت تحبه وهى طفلة ، رسمت عليه خرافة « الثعلب والبجعة »

والى أحد جانبى غرفة الاستقبال ، كانت ثمة غرفتان مهجورتان ، فضلا عن المكتبة التى زخرت بالكتب القديمة ٠ والى اليسار كانت غرفة المائدة ، وقد جددت جدرانها ٠٠ وغرفة البياضات ، حيث كانت تحفظ اغطية قطع الاثاث ٠٠ ثم مخزن المشروبات ، وحمام صغير ٠٠

وكان يشطر الطابق الثانى بهو آخر ، تتخلله ابواب الحجرات العشر التى يتألف منها الطابق . وكان الجناح المخصص لجان يقع الى اليمين ، فى المؤخرة ، وقد عنى البارون اخيرا بتجديد نقوشه ، وتأثيثه بستائر وأثاث كان مختزنا فى الطابق العلوى دون استعمال . فحفلت جدرانه بسجاد « فلمنكى » عتيق يحمل صور شخصيات بارزة

واذ رأت « جان » سريرها ، أطلقت صيحة فرح خافتة .. وكانت تزين كلا من اركانه الاربعة طيور كبيرة من خشب السنديان ، طليت بلون أسود لامع ، وكأنها تحرس السرير .. أما جانباه ، فكانا أشبه باكليلين من الزهور والفواكه المحفورة فى الخشب ، تحيط بهما اربعة أعمدة دقيقة الصنع ، تنتهى بتيجان « كورينثية » تحمل اطارا نقشت عليه صور لكيوبيد محفوفة بالورود ..

كان سريرا بديعا ، وعلى الرغم من تأثر لون الخشب بمضى الزمن ، فانه بدا فخما .. وكان غطاء كل من السرير والأريكة من حرير أزرق أثرى ، تناثرت فيه زنابق ذهبية تومض كأنها نجوم ..

وبعد أن ملأت « جان » بصرها منها ، رفعت الضوء لتتأمل الرسوم التى كانت تحلى السجاد المعلق على الجدران . وكانت تمثل نبيلا شابا ، وسيدة فى زهرة العمر ، ارتديا ثيابا تجتذب النظر بألوانها الخضراء ، والحمراء ، والصفراء .. وقد جلسا يتناجيان ، تحت شجرة زرقاء ، تحمل ثمارا بيضاء . وعلى مقربة منهما ، كان ثمة أرنب ابيض سمين يقرض العشب الرمادى اللون . وخلف الشابين بدت ، عن بعد ، خمسة بيوت صغيرة ، ذات سقوف مدببة . وقامت خلفها على مسافة اخرى ـ عند الافق ـ طاحونة ذات حمرة زاهية .. وكان يتخلل كل هذا ، كثير من الزخارف التقليدية المقتبسة من الزهور . أما

اللوحتان الباقيتان فكانتا تشبهان هذه الاولى ، فيمـــا عدا انهما كانتا تمثلان الى جانب ذلك ، اربعة كهول فى ثياب اهل (الفلمنك) ، وقفوا امام البيوت يلوحون بأيديهم نحو السماء فى مسلك ينم عن حيرة او غضب

على ان السجادة الاخيرة كانت تمثل لوحة مؤثرة : فعلى مقربة من الارنب ـ الذى كان لا يزال يقرض العشب ـ اســـتلقى الشاب ، وقد بدا انه فارق الحياة ، بينما كانت الشابة تحدق فيه ، وقد غيبت سيفا فى صدرها • واستحالت الثمار عـلى الشجرة سوداء !•• وكادت « جان » تيأس من الوصول الى ادراك المأساة ، لولا ان لمحت فى الركن شكلا دقيقا ، كان من المحتمل ان تظنه عشبا قرضه الارنب ، فى حين انه كان يمثل اسدا • واذ ذاك ادركت « جان » المغامرة التعسة التى خاضها « بيرامس » و « تيسبى » •• **ومع أنها عجبت من بساطة الفن الذى تجلى فى الرسوم ، الا أنها سعدت بأن تكون قريبة من هذه المغامرة الغرامية التى كانت تعبر عن امانيها وحنينها ، رغم انها اسطورة خرافية • خرافة قدر لها ان تطل عليها حين تنام ••**

اما بقيـــة الاثاث ، فكان متبـــاين الطـــراز : قطع خلفتها أجيال سابقة كانت تحرص على أن يبدو البيت كالمتحف ، فكان هناك مقعدان من طراز لويس الخامس عشر ، كسيا بحرير ازدان بنقوش الزهور ، وقاما على جانبى صوان أنيق ذى ادراج ، من طراز لويس الرابع عشر • وعلى حافة المدفأة ، كانت ثمة ساعة ـ من عهد الامبراطورية ـ فى كرة من زجاج • وفى مواجهة المدفأة مكتب من خشب الورد •• وكانت الساعة على شكل خلية نحل قامت على أربعة أعمدة رخامية فوق مجموعة من الزهور الملونة ، ولها بندول رقيع ينتهى بنحلة صـغيرة ذات جناحين من الميناء ، تتأرجح فوق

الزهور .. وشرعت الساعة تدق الحادية عشرة ، فقبل البارون ابنته وغادر الحجرة

وآن لجان أن تأوى الى الفراش راغمة ، فألقت نظرة أخيرة ألمت بالغرفة ، ثم أطفأت شمعتها . وكانت الى يسار السرير ـ الذى لم يلاصق الجدران منه سوى رأسه ـ نافذة صغيرة ، انساب خلالها ضوء القمر ففاض على أرض الحجرة ، وانبعثت عنه انعكاسات واهنة لثمت رسمى «بيرامس» و «تيسبى» الجامدين على الحائط . وخلال نافذة أخرى ـ تقابل نهاية السرير ـ رأت الفتاة شجرة سامقة ، غارقة فى ضوء القمر .

وانقلبت « جان » على جانبها تحاول أن تنام ، لكنها سرعان ما فتحت عينيها ثانية ، وهى تخال انها تحس باهتزازات العربة وتسمع دوران عجلاتها . وظلت برهة مستلقية فى سكون ، ترجو أن يدهمها النعاس ، لكن تعب ذهنها سرى الى جسمها ، فأحست باختلاجات عصبية فى ساقيها ، وبشىء من

الحمى فى رأسها • ونهضت فى النهاية ـ وقد بدت فى ثوب نومها الابيض ، وقدماها حافيتان أشبه بطيف ـ فعبرت بركة الضوء التى بسطها القمر على الارض ، وفتحت النافذة ، وأطلت خلالها ••

كانت الليلة صحوة ، مشرقة ، حتى انها استطاعت أن تتبين ما أمامها وكأن النهار باسط نوره •• فتأملت جان المناظر المحيطة التى كانت تحبها فى طفولتها الباكرة •• كان فى مواجهتها مرج شاسع بدا تحت ضوء القمر أصفر كالزبد •• وأمام البيت قامت شجرتان عملاقتان ، كما قامت الى يمينه شجرة جرداء طويلة من نوع يعرف بـ « الدلب » ، وشجرة زيزفون •• وفى أقصى المرج كان ثمة بستان تقيه عدوان المحيط خمسة صفوف من شجر الدردار العتيق ، قد التوت وانحنت تحت قوة الرياح التى لا تفتأ تهب من المحيط •• وكان يحد هذا البستان ـ من الجانبين ـ طريقان طويلان حفت بهما أشجار الحور السامقة ، التى كانت تفصل مقر أصحاب الضيعة عن البيتين الريفيين المجاورين ، اللذين كانت تقطنهما أسرتا « كويار » و « مارتان » •• وكانت هذه الاشجار سبب تسمية الضيعة بضيعة « الحور »

وامتد خلف البستان سهل غير معبد ، كسته النباتات الشوكية التى كانت رياح المحيط تعوى خلالها باستمرار ، ليل نهار ! •• وفجأة ، ينتهى السهل بتل يبلغ ارتفاعه حوالى ٩٥ مترا ، يشرف على المحيط

* * *

• **وسرحت** جان بصرها فى سطح المحيط الارقش •• فلاح لها كأنه نائم تحت النجوم •• وفى غمرة السكون ، بدا كأن جميع روائح الريف تهب على « جان » •• كان ثمة عبير ياسمينة تنمو بمحاذاة نوافذ الطابق السفلى •• وشذى

أخف ينبعث من البراعم التى لم تتفتح ٠٠ وحملت نسمات رقيقة أنفاسا من ريح الماء المالح وأعشاب البحر ٠٠ فأخذت « جان » تستنشق فى اغتباط ، وقد سرى هدوء الليل من تعبها ٠٠ وملأت العتمة ، باضطراب خافت ، حيـــوانات تكمن فى ظلام الليل ٠٠ وانسابت فى الجو طيور كبيرة تحلق فى صمت تام كأنها الاشباح ٠٠ وانبعثت همهمة خافتة من حشرات غير مرئية كانت تتسابق خلال الاعشاب المخضلة ، ورقعة الطريق المعتمة المقفرة ٠٠ وان لم يكن يعكر السكون بشـــكل ظاهر سوى النقيق الحزين الرتيب المنبعث من الضفادع ٠٠ وخيل لجان كأن قلبها يترع بهمسات الليـــل ويكبر ٠٠ وأحست فجأة بألف رغبة ونزوة مختلفة ، وكأن ثمة رابطة قوية تشدها الى حيوانات الليل الصامتة ، والى شاعرية الليل الرائعة ٠٠ وارتجفت وهى تشعر بوجيب آمال مبهمة ٠٠ وبعث فيها كل هذا شعورا من السعادة ٠٠ ٠٠

وهكذا بدأت تفكر فى الحب ٠٠ الحب ! ٠٠ لقـد أخذت لهفتها تزداد منـذ عامين لتعرف الحب ٠٠ وها هى ذى قـد أصبحت حـرة فى أن تعرفه ، ولم يبق سوى حاجز واحـد بينها وبين لقـائه : « هو » ٠٠ فتى أحـلامها ٠٠ ترى ما شكله ؟ ٠٠ لم تكن تعرف تماما ، أو تملك القدرة على الجواب ٠٠ كان يكفى أن يكون « هو » وحسب ٠٠ فهذا كل شىء ٠٠ اذ كانت تعرف انها سوف تعبـد « هو » بكل قلبها وروحها ، وان « هو » سيعزها بكل قلبه وروحه ٠٠ وسيتاح لهما أن يتنزها فى الليالى الشبيهة بهذه الليلة ، تحت أشعة القمر والنجوم المتألقة ٠٠ سيسيران اذ ذاك وقد تشابكت يداهما،وأحسا بوجيب قلبيهما ، ودفء جسميهما اذ يتماسان، فيمزجان حبهما بعذوبة ليل الصيف ٠٠ لسوف يتحدان الوحـــدة الكاملة التى بها يسـتطيع كل منهما أن ينفذ

بسهولة الى أعمق الافكار التى يسرها الآخر •• ولسوف يستمر ذلك الى الابد •• فئ وقار وعاطفة جليلة !

وأحست فجأة بأنه ـ « هو » ـ موجود ، قريب منها ، فسرت فى جسدها رعشة غريبة ، مثيرة •• وضمت ذراعها الى صدرها دون وعى ، وكأنها تحاول أن تتشبث بالحلم ، ومرت على شفتيها حركة ناعمة بهرتها ، كأنما مستهما احدى نسائم الربيع بقبلة خفيفة عابرة ••

وسمعت فجأة شخصا يسير فى الطريق ، خلف الدار ، فاذا بها تتساءل ـ فى ايمان أعمى بالحظ والمستحيل ، وما للقدر من تقلبات خيالية ـ عما اذا كان السائر •• « هو » !•• وأرهفت السمع الى الخطى المنتظمة ، واثقة من أن صاحبها سيقف بالبيت ويسأل أهله أن يستضيفوه !•• لكنه تجاوز البيت ، فغشى « جان » حزن غامض ، كما لو كانت قد تعرضت لخدعة مريرة •• ولكنها سرعان ما استبانت جنون تصوراتها الخيالية ، فابتسمت لحماقتها !

واذ هدأت نفسها ، شرعت تفكر فى أمور أكثر قربا الى المعقول ، محاولة أن ترسم للمستقبل ـ ولوجودها فيه ـ خطة دقيقة : **لسوف تقيم هنا معه ـ « هو » ـ فى صرحهما المهيب المطل على البحر •• وستنجب طفلين ، ابنا له وابنة لها ! •• وخيل اليها انها تراهما يجريان فوق أرض المرج ، يكران ويفران بين الاشجار ، وهي و « هو » يرقبانهما فى ابتهاج ويتبادلان النظرات المشبوبة الوجد ••**

* * *

• ومكثت طويلا عند النافذة مستغرقة فى هذه الأحلام •• حتى اذا هم القمر بأن ينحدر فى النهاية الى البحر ، ويغيب ، اشتدت برودة الهواء ، وأخذ الافق يزداد وضوحا عند الشرق •• وأطلق ديك فى المزرعة التى الى اليمين عقيرته

بالصياح ، فأجابه آخر من المزرعة التى الى اليسار ! وبدا صياحهما وكأنه منبعث من بعد سحيق ، خلال جدران حظيرتى الدجاج .. وأخذت النجوم تخبو وتختفى رويدا من صفحة السماء المترامية .. وغرد طائر فى مكان ما ، فتبعته همهمة مترددة من طيور أخرى .. ولم تلبث هذه الطيور أن تجرأت ، ثم انتشرت مرحة من شجرة الى أخرى .. وفجأة ، انتبهت « جان » الى خيط من نور يترامى عليها ، فرفعت رأسها ، وأغمضت عينيها ، نشوانة ببهاء الفجر ..

وألقت طبقة من السحاب المتوارى خلف صفوف أشجار الحور - المنتصبة القامة فى جلال - أطيافا فى حمرة الدم على الأرض التى بدأت تستيقظ .. ثم شقت الشمس طريقها خلال السحب ، تمس البحر والاشجار والافق بقبس من نار..

وأحست « جان » ازاء هذا البهاء بنشوة محمومة . كان قلبها يفيض غبطة .. كانت هذه شمسها ، وفجرها ، وفاتحة حياتها الجديدة ، ويقظة آمالها ! .. وبسطت ذراعيها نحو الشمس كأنما تهم بأن تحتضنها . وودت لو ترفع صلاة متعبدة تضارع انبثاق الفجر ، لكنها كانت عاجزة .. ومن ثم أحنت رأسها واعتمدتها بين يديها ، فأحست بعينيها تفيضان دمعا .. وبكت فى سعادة خالصة !

وعندما رفعت رأسها أخيرا ، كانت روعة الفجر قدتلاشت، فأحست جان بالكلل ، وبشىء من البرد . وألقت بنفسها على السرير ، دون أن تحفل باغلاق النافذة ، وغابت فى نعاس بلغ من العمق انها لم تسمع أباها وهو يناديها فى الساعة الثامنة .. فلم تستيقظ الا حين جاء الى غرفتها

وكان مشوقا لأن يطلع « جان » على التحسينات التى أدخلت على الضيعة .. ضيعتها ! .. فقد حجب ذاك الجانب من الدار المواجه للطريق ببستان تفاح .. وهذا هو الطريق

المفضى الى الكنيسة ، عبر حقول الفلاحين ومزارعهم ، وهو يلتقى بعد نصف الميل بالطريق الرئيسية التى تصل بين (الهافر) و (فيكامب) ٠٠ وذاك ممر مستقيم قد ربط السياج بدرجات السلم الأمامى للدار ٠٠ كما امتدت على جانبى بستان الورود ، منازل من الحجر صنعت سقوفها من قش ٠٠

وكانت ثمة آثار اصلاحات جديدة أدخلت على الأثاث فى كل مكان ٠٠ وجدد الورق الذى يغطى الجدران ، وطليت مساحات بأكملها داخل الدار ٠٠ وبدت مصاريع النوافذ الجديدة ـ وقد طليت بلون أبيض فنى ـ واضحة بالنسبة لجدران البيت التى لوحها الجو بالسمرة ٠٠ وكان الجانب الذى تقوم فيه غرفة « جان » من الدار ، يطل على البحر وبستان شجر الدردار ٠٠

وسارت « جان » مع أبيها ، وقد عقدا ذراعيهما ، يتفقدان كل شىء ، ولا يغفلان شيئا ٠٠ وخطرا تحت أشجار الحور التى ضمت فيما بينها ما كانا يسميانه ب « المتنزه » ٠٠ وكان العشب بساطا أخضر ناعما تحت الاشجار ، وقد بدت دروب صغيرة متعرجة تتخلل البستان الصغير الفاتن القائم فى الطرف الاقصى ٠٠ وظهر أرنب برى فجأة ، فأوقع الذعر فى قلب « جان » ، ثم قفز عبر السياج ، واندفع خلال الشجيرات الشوكية صوب التل

وكانت « مدام أدليد » لا تزال منهوكة القوى ، فأعلنت بعد الافطار انها ستنام برهة ، ومن ثم قرر البارون ان يصحب « جان » الى (ايبور) ٠٠ فمرا أولا خلال قرية (ايتوفان) ، حيث تقوم أشجار الحور ، فحياهما الفلاحون وكأنهما كانا يعرفانهم مدى الحياة ٠٠ ثم دلفا الى الغابات التى تنحدر الى الساحل ، وتبعا انعراجا يفضى الى الوادى ،

فسرعان ما لاحت لهما (ايبور) ‥ وراقبتهما النساء اللاتى كن يجلسن على عتبات دورهن يرتقن الثياب ، وهما يمران بهن ‥ وكان ينبعث من الطريق ـ الذى توسطته قناة ، وتناثرت أمام دوره أكوام من الفضلات القديمة ـ رائحة ماء البحر النفاذة ‥ وكانت شباك صيد السمك البنية اللون ، منشورة أمام البيوت لتجف ، ولا يزال قشر السمك اللامع يتناثر فى بعضها ‥ وتصاعدت من الدور أصوات أطفال نشطوا للعب ‥ وحامت حول القناة بعض حمامات تبحث عن قوت ‥

كان كل هذا يبدو غريبا لجان ، وكأنه مشهد من مسرحية ! لكنها لم تلبث ، اذ انعطفا مع الطريق ، ان رأت البحر ‥ هادئا ، عميق الزرقة ، يمتد الى أقصى مرامى البصر ٠ ووقفا عند الشاطىء يتأملان المحيط ، فرأيا بضعة أشرعة على بعد ، بيضاء كزغب طيور « النورس » ‥ والى اليمين واليسار ، قامت جوانب التل الهائل ‥ وكانت ثمة قمة تحجب المنظر فى ناحية ، ولكن الساحل كان ينبسط فى الناحية الاخرى الى الافق ، وقامت عند أحد البواغيز المجاورة ، مجموعات من البيوت ، كانت تنحدر اليها أمواج صغيرة فتوشى سطح الماء بالزبد ٠ واستلقت زوارق الصيد الراسية على الشاطىء ، على جوانبها ، معرضة قيعانها المستديرة المكسوة بالقار السميك ، للشمس ‥ وكان ثمة صيادون يعدونها للرحيل اذا ما أقبل المد فى المساء ٠ واقترب منهما ملاح ببعض السمك ، فابتاعت « جان » سمكة كبيرة لتأخذها الى « قصر الحور » ٠ وعرض عليهما الرجل ان يصحبهما فى نزهة فى قاربه ، وهو يردد اسمه مرارا ليوقره فى ذهنيهما : « لاستيك ‥ جوزفان لاستيك » ٠ فوعده البارون بأن يذكر الاسم ‥ ثم سارا فى النهاية الى القصر ‥ واتعبت السمكة الضخمة

« جان » ، فدفعت بعصا أبيها خـــلال خيشوميها ، حتى تســـتطيع وأبوها أن يحملاها بينهما ٠٠ وتسلقا التـــل سعيدين ، يثرثران كطفلين ، وقد أومضت عيونهما ، وصعرا خدودهمـــا للريح ٠٠ والسمكة ـ التى أرهقت ذراعيهما ـ تمسح العشب بذيلها الكبير

الفصل الثانى

• **تفتحت** لجان حياة حرة مجلوة البهاء ، فراحت تكثر من القراءة واطلاق العنان لخيالها ، وكانت تجوس وحيدة فى أرجاء المنطقة المجاورة ، وتهيم فى الغابات مستغرقة فى أحلام اليقظة ، أو تجرى فى الوديان الصغيرة المتعرجة التى تحدها النباتات الشوكية الكثيفة . **وكانت حرارة الجو تضاعف من أريج تلك النباتات العبقة ، فيبعث فى « جان » نشوة كأنما هو الخمر .. بينما كان صوت تكسر الامواج يصل من بعيد واهنا ، فيريح نفسها . وكانت تستلقى احيانا على الحشائش**

الكثة النامية على احد السفوح ، فاذا رأت خلال ثغرة من فضاء فى جانب الوادى ، زرقة البحر المؤتلقة ، ولاح لها أحيانا شراع أو اثنان ، داخلها شعور بهناءة لا تفسير لها ، وكأنما يوشك ان يغمرها فرح خفى !

وفى غمرة هذا كله ، بدأت تستطيب الوحدة • صارت كثيرا ما تطيل الجلوس على التلال الى درجة توحى للارانب الجبلية الصغيرة بان تطمئن اليها فترعى عند قدميها • وكثيرا ما كانت تجرى على حافة التل الجيرى ، ونسيم البحر يداعب وجهها فى رفق ، وقد لذ لها ما فى الجرى من نشاط حيوى ، وكأنها لا تجرى لمجرد النزهة والرياضة ، بل تجرى بحكم العادة والوسط كما تفعل الطيور والاسماك !•• وأخذت ، أينما ذهبت ، تقتنص الذكريات •• ذكريات تبقى جذورها فى اعماقها الى الممات ، كما تتغلغل جذور الحبوب فى التربة • كان يلوح لها انها تلقى شطرا من قلبها فى كل منعرج او سفح فى تلك الوديان !

واتخذت من الاستحمام فى البحر عادة اخرى ، فكانت تسبح حتى توشك ان تغيب عن البصر ، غير حافلة بالخطر ، اطمئنانا الى قوتها وفتوتها •• كانت تشعر باغتباط فى الماء الازرق البارد الذى كان يحملها ويهددها ، **فاذا ما ابتعدت عن الشاطىء عامت على ظهرها وقد طوت ذراعيها على صدرها ، وثبتت عينيها على زرقة السماء اللانهائية التى يعترضها ، من آن لآخر ، طيف طائر يبدو لحظة ثم يختفى** • ولم يكن ثمة صوت يسمع سوى تكسر الامواج ، وسوى ذلك الصوت المبهم الذى لا يكاد يكون محسوسا ، والذى ينبعث من حركة الماء فى حد ذاتها •• ثم لا تلبث « جان » ان تنقلب وتنشط للسباحة فى سعادة غامرة ، فاذا اوغلت فى البعد ، تبعها زورق لحراستها •• ثم تعود الى القصر شاحبة لفرط الجوع ، لكنها منتعشة الحواس ، باسمة ، متألقة العينين ••

◆ فى تلك الاثنـــاء ، كان البارون يرسم الخطط للقيـــام بمشروعات زراعية كبيرة ، فقد شاء ان يأخذ بالتجربة ، وان يفيد من المحاولة والخطأ فى تقدمه ، وان ينظم أعماله ويستخدم الآلات والاساليب الحديثة ، ومن ثم كان يقضى شـــطرا من نهاره يتشاور مع فلاحى المنطقة الذين لم يتصـــوروا جدوى مشروعاته . وكان يذهب كذلك الى البحر مع ملاحى (ايبور) ، اذ كان يروق له ـ بعد ان يفرغ من زيارة عيون وكهوف البطاح المجاورة ـ ان يذهب لصيد السمك كأى بحار عادى ..

وفى الايام التى يهب فيها النسيم فتنتفخ به الاشرعة ، كانت الزوارق تكاد تطير فوق الامواج ، وقد تدلت خيوط الصـــيد على جوانبها ، تتبعهازرافات من السمك .. اذ ذاك كان البارون يمسك فى تحمس بالخيط الذى كان يهتز كلما حاولت سمكة ان تجاهد للخلاص من الشص .. وكان ينطلق تحت ضـــوء القمر ليجلب الشباك التى ألقيت فى الليلة الســـالفة . كان يحب صرير صارى المركب ، وزئير الرياح فى الليل ، ويقضى وقتا طويلا فى قيادة المركب مهتديا بالعوامات التى توضع فى الماء لارشاد السفن ـ (الشمندورات) ـ او بقمة صـــخرية عالية ، أو برج جرس احدى الكنائس ، أو منارة « فيكامب » .. وكان يحب ان يبقى بعد ذلك بلا حراك تحت طلائع اضـــواء الفجر .. حتى اذا اشرقت الشمس ، لمعت على سطح المركب ظهور سمك « السفن » ـ الشبيه بالمروحة ـ وبطون ســمك « الترس » . **وكلما اجتمعت الاسرة حول المائدة ، كان البارون يتحدث فى تحمس عن مغامراته .. والبارونة تتحدث بنفس اللهجة عن نزهاتها فى الطريقين اللتين تحف بهما اشـــجار الحور ، وكيف انها قضت اليوم فى الطريق اليمنى فى اتجـاه مزرعة « كويار » لأن الطريق الأخرى لم تكن مشمسة بدرجة كافية ..** وكانت تصر على السير على قدميها ، اذ قيل لها ان

المشى مفيد لها ، فلم تكن تتبدد الرطوبة المتخلفة عن الليل ، حتى كانت تهبط معتمدة على ذراع وصيفتها « روزآلى » ، ملتفة فى عباءة ووشاحين ، وقد غاب رأسها فى قلنسوة سوداء ، و « كوفية » من صوف احمر منسوج باليد ٠٠ ثم تشرع فى السير ـ ذهابا وجيئة ـ بين القصر وأولى شجيرات البستان ، وهى تجر قدمها اليسرى التى كانت اثقل من الأخرى قليلا ، والتى كانت ترسم على طول ارض الطريق خطين ، وتقضى على العشب الذى تطأه ٠٠ وقد اقيم للبارونة مقعدان عند طرفى هذا الطريق ، فكانت تقف كل خمس دقائق وتقول للفتاة المسكينة الصابرة التى تعينها : « لنجلس يا عزيزتى ، فانى متعبة بعض الشىء » ٠ وفى كل مرة تقف فيها ، كانت تترك على المقعد شيئا مما عليها : « الكوفية » اولا ، ثم احد الشالين ، فالشال الآخر ، ثم القلنسوة ، فالعباءة ٠٠ فكانت هذه جميعا تحيل المقعدين الى كومتين كبيرتين من الثياب ، تحملهما « روزالى » فيما بعد ، حين تعودان الى القصر لتناول طعام الافطار ٠٠ وبعد الظهر ، كانت البارونة تبدأ العملية من جديد ، اكثر تمهلا فى السير ، واكثر اطالة لفترات الراحة ، حتى لقد كانت تغفو ساعة ـ بين وقت وآخر ـ وهى جالسة فى مقعد طويل يؤتى به من البيت من اجلها ٠٠ وكانت تسمى هذه العملية « رياضتى » ، تقولها فى غير احتفال ، كما تقول : « ترهلى » !

وكان قد استشير طبيب مرة ـ منذ عشر سنوات ـ فى امر ضيق تنفس البارونة ، فقرر أن سببه « الترهل » ٠ ومنذ ذاك الحين ، علقت هذه الكلمة ـ التى لم تكن البارونة فى الحقيقة تفهمها تماما ـ بذهنها ، فكانت تصر فى عناد على ان يتحسس البارون ، وجان ، وروزالى ، قلبها بين الحين والآخر ، وان لم يعدفىطوق أحدهم أن يفعل من فرط ما كان هذا القلب

يرزح تحت طبقات كثيرةمن الشحم !٠ لكنها كانت تأبى، بنفس العناد ، ان تسمح لاى طبيب آخر ان يفحصها ، خشية ان يكتشف امراضا اخرى ! وكانت تتحدث عن الترهل ، مضيفة ضمير المتكلم ـ « ياء الملكية » ـ الى هذه الكلمة ، كما لو كان هذا المرض وقفا عليها ، لا حق لأحد سواها فى ان يصاب به ٠٠ وكان البارون يشير اليه بقوله : « ترهل زوجتى » ، وجان بقولها : « ترهل ماما » ، كما لو كانا يتحدثان عن ثوب البارونة او قبعتها او مظلتها !

وقد كانت البارونة جميلة جدا فى شبابها ، رشيقة كعود من الغاب ٠٠ وبعد ان راقصت ضباط جميع ألوية جيش عهد الامبراطورية ، قرأت قصة « كورين » فأبكتها ، ومنذ ذاك الحين وهى تلوح متأثرة بالرواية ٠٠ ثم اخذت تزداد سمنة ، وتولتها نزعات شاعرية ٠ وعندما قضت عليها السمنة المفرطة فى النهاية بان تقضى العمر فى راحة مرفهة ، اخذت تحلم بمغامرات تقوم فيها بدور البطلة ٠ وكان بعض هذه المغامرات أحب اليها من سواها ، فكانت تستعرضها بعين الخيال مرارا وتكراراً ، كصندوق موسيقى ادير مفتاحه فهو يكرر نفس اللحن الى ما لا نهاية ٠٠ وكانت القصص التى يتناول فيها الوصف قوما مختطفين ، او أسرى ، او مظلومين ، تثير دموعها حتما ، بل انها كانت تعجب ببعض اغانى « بيرانجيه » لما كانت تتميز به من وصف الاحزان ٠ وكثيرا ما كانت تبقى ساعات بلا حراك ، وهى أسيرة هذه الاحلام ٠ وكان قصر « الحور » يروق لها بوجه خاص فى مثل هذا الوقت من السنة ، لانه كان يهيىء لها جوا ملائما لمغامرات خيالية ! كما كانت الغابات المحيطة بالقصر ، والمروج المنعزلة ، والمحيط المتلاطم القريب ، تذكرها بكتب « سير ولتر سكوت » التى ظلت تقرأها بضعة شهور

وكانت تمكث فى غرفتهـــا فى الايام المطيرة ، لتفحص ما كانت تســـميه « ذخائرها » ، التى كانت تتمثـــل فى كافة خطاباتها القديمة : خطابات من أبيها وأمها ، ومن البارون ابان خطوبتهما ، ومن آخرين • وقد حفظتها فى صندوق من الخشب « الماهوجنى » ثبتت أركانه بمسامير نحاسية •• فكانت تقول فى لهجة غريبة : « روزالى ، احضرى لى يا ابنتى صندوق ذخائرى »

وكانت روزالى تفتح المكتب ، وتتناول منه الصندوق فتضعه على مقعد الى جوار البارونة التى تشرع فى قراءة الخطابات فى تؤدة ، واحدا بعد آخر ، مذرفة دمعة بين آن وآخر !

* * *

◆ **وكانت** « جان » هى التى ترافق أمها أحيـــانا فى نزهتها بدلا من « روزالى » ، فتتحدثان عن ذكريات الطفولة ، وكانت الفتاة ترى نفسها تعيش فى قصص الماضى ، فتعجب للتشابه بين أفكارها وأفكار أمها ، وبين رغباتهما المكتومة ، **اذ كان كل من قلبيهما يخال انه أول قلب استجاب لفيض مشاعر معينة ــ وان كانت هى نفس المشاعر التى خفق لها قلبـــا اول مخلوقين آدميين ، والتى ستظل تثير قلوب آخر الرجال والنســـاء على الارض !**

وكانت خطاهما البطيئة تتسق مع السرعة التى ترويان بها قصصهما •• وقد تقطع القصة أحيانا لبضع ثوان بسبب ضيق أنفاس البارونة ، واذ ذاك كان خيال « جان » ــ وهو يحـــوم حول المغامرات التى بدأتا تتداولانها ــ يطفر بها الى المستقبل •• مستقبل ملىء بالبهجة والامل •• وذات عصر ، كانتا تجلسان على أحد مقاعد الطريق ، حين لمحتا فجأة قسا بدينا يسعى اليهما ، ثم يحييهما بانحناءة وهو لا يزال على مسافة منهما •• حتى اذا صار على قيد متر فقط ، انحنى ثانية ، وابتســـم قائلا : « كيف نحن الآن يا سيدتى البارونة ؟ »

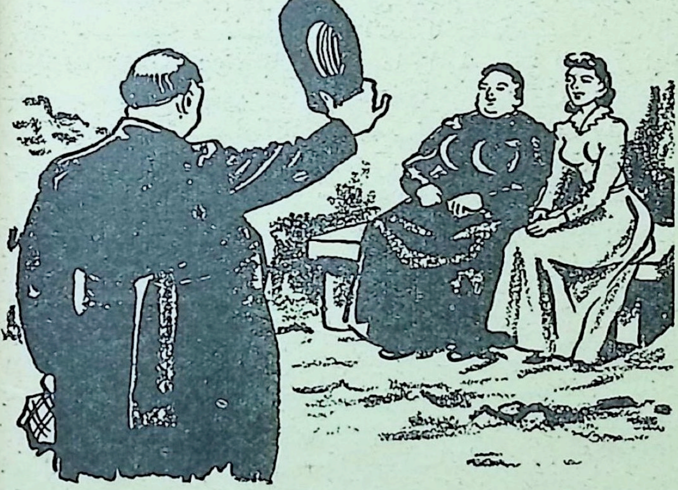

كانت البارونة قد ولدت فى قرن امتاز بالفلاسفة التقدميين، وعنى بتربيتها أب لم يكن صارما فيما يتعلق بفروض الدين ، لا سيما فى أيام الثورة، ومن ثم فانها لم تكن تذهب الى الكنيسة كثيرا ، ولو انها كانت تميل الى القساوسة ، تحدوها غريزة نسوية طبيعية للدين بوجه عام ٠ وكانت قد نسيت تماما « الأب بيلو » ـ قس قريتها ـ ومن ثم تضرج وجهها حين عرفته ، والتمست الاعذار اذ لم تكن السباقة الى الزيارة ، بيد ان القس لم يبد اى استياء ، بل تأمل « جان » وأطرى مظهرها ، ثم جلس ، ووضع قلنسوته الثلاثية الجوانب على ركبتيه ، وجفف جبينه ـ اذ كان مفرط السمنة ، شديد الاحمرار ، غزير العرق ـ وكان لا يفتأ يجفف وجهه بمنديل كبير ، لا يكاد يرده مبتلا الى جيبه ، حتى يعود

العرق يتفصد على وجهه ، ويتساقط على ثوبه المترب الذى كان ينتفخ فوق بطنه ..

كان مثالا للقس الريفى ، مرحا ، ثرثارا ، سريع الادراك ، طيب القلب .. فأخذ يروى الحكايات ، ويتحدث عن الجيران ، دون ان يذكر شيئا عن هاتين الاثنتين من رعايا « أبرشيته » المتخلفتين عن الكنيسة .. وكانت البارونة تلتمس لنفسها الاعذار بالخلط بين كسلها ، ونوع مبهم من الايمان الذى لا يتقيد بالمظاهر والمراسم الدينية .. اما « جان » ، فكانت جد سعيدة لتحررها من الدير الذى ارهقت فيه بالتقوى والطقوس ! »

واقبل البارون .. كانت فلسفته المبنية على وحدانية الكون ـ اى ان الله والكائنات واحد ـ قد صرفته عن الاهتمام بالدين ، لكنه كان حفيا بالقس ، اذ عرفه منذ عهد بعيد ، ومن ثم دعاه الى العشاء . وكان القس يعرف كيف يكون ودودا وموضعا للود ، بفضل ذلك الدهاء الغريزى الذى يتأتى عن طريق معالجة نفوس الناس ، حتى لأبسط الرجال الذين يرفعهم الحظ الى مناصب يفرضون منها سلطانهم على اخوتهم من البشر ..

وأغرقته البارونة بالرعاية .. ولعلها كانت فى ذلك مسوقة بما كان بين طبيعتيهما من تشابه ، فقد كانت سمنة وجهه واحمراره ، وتهدج انفاسه ، وضخامة جسمه ، تشبه ترهلها !

.. واذ قارب العشاء نهايته ، ازداد القس مرحا ، وقد سرت فيه الغبطة الطبيعية التى تعقب عادة وجبة شهية ، فقال فجأة ، وكأنما خطر له خاطر سعيد : « لقد انضم للأبرشية شخص جديد يجب ان اقدمه لكم .. انه السيد الفيكونت دولامار »

فقال البارون الذى كان على معرفة وثيقة بجميع ذوى الالقاب فى الاقليم : « أهو من اسرة « لامار » فى (اير) ؟ »

فأجاب القس : « اجل ، انه ابن الفيكونت جان دو لامار الذى مات فى العام الماضى » .

وهنا أخذت « مدام أدليد » ـ التى كانت تعجب بالالقاب

قبل كل شىء ـ توجه اليه أسئلة ، عرفت من ورائها ان « الفيكونت » باع قصر اسرته ، بعد ان سدد ديون ابيه ، واستقر فى احدى مزارع ثلاث يملكها في منطقة (ايتوفان) ، وكانت تدر عليه دخلا يتراوح بين خمسة آلاف وستة آلاف من الفرنكات • لكنه كان مقتصدا ،شحيحا ،وقد عول على أن يعيش فى بساطة مدة عامين او ثلاثة ، فى بيت ريفى متواضع ، حتى يدخر ما يكفي لكى يتبوأ مكانة رفيعة في المجتمع ـ فيما بعد ـ ويحظى بزيجة طيبة ، دون ان يغرق في الديون او يرهن مزارعه • واضاف القس قائلا : « انه شخص ظريف ، أهل للثقة ، عاقل ٠٠ ولكن ليس لدينا هنا ما يروقه ويسليه »

فقال البارون : « أحضره لزيارتنا من آن لآخر يا سيدى الأب ، فقد يجد فى هذا ترفيها عن نفسه »

ثم تحول الحديث الى مسائل أخرى ، وانتقلوا بعد تناول القهوة الى حجرة الاستقبال ، فاستأذن القس فى ان يهبط الى الحديقة ، إذ كان من عادته ان يتمشى قليلا بعد الاكل ٠٠ ورافقه البارون ، فراحا يخطران امام القصر جيئة وذهابا ، وظلاهما يغدوان ويروحان مرة أمامهما ، ومرة خلفهما ، حسب مواجهتهما للقمر أو ادبارهما عنه ٠٠ وكان القس يقضم شيئا يشبه السيجارة ، اخرجه من جيبه ، واخذ يشرح مفعوله بتلك الصراحة المأثورة عن الريفيين ، قائلا : « انه يساعدنى على التجشؤ اذا تكاسل الهضم عندى »

ثم تطلع الى السماء فجأة ، والى القمر الذى كان يتهادى على صفحتها ، وقال : « ما من انسان يمل هذا المنظر » ٠٠ ثم عاد الى القصر ليودع السيدتين وينصرف

الفصل الثالث

• **توجهت** جان والبارونة فى يوم الاحد التالى الى الكنيسة للصلاة ، مدفوعتين بالحرص على مجاملة القس • ثم انتظرتا كى تدعواه للغداء في يوم الخميس التالى ، فأقبل عليهما من غرفة الأسرار الكنسية ، تحيط ذراعه بخصر شاب طويل ، رشيق •• فما ان رآهما ، حتى أبدى دهشة يمازجها سرور ، وقال : « هذا حظ كبير • اسمحا لى يا سيدتى البارونة ويا آنسة جان ، بان اقدم لكم جاركما السيد الفيكونت دولامار »

وانحنى الفيكونت ذاكرا انه كان يرجو لقاءهما منذ امد طويل ، ثم شرع يبادلهما حديثا عابرا ، فى حضور ذهن رجل

المجتمع الذى رأى الكثير من نواحى الحياة • وكان يحظى بوجه من تلك الوجوه التى تحلم بها النساء ، ولا يرضى عنها الرجال ! وكان شعره الاسود المجعد يخيم على جبينه الناعم الاسمر ، وقد زاد من سواد عينيه ولطف نظراتهما ، حاجبان كثيفان ، بديعا التنسيق الى درجة توحي بان اتساقهما مصطنع •• وكانت تمازج بياض عينيه زرقة خفيفة جدا ، كما كانت أهدابه الطويلة الوطفاء تكسبه نظرة والهة تثير الوجد فى قلوب سيدات المجتمع المتكبرات ، وتحمل البسيطات من فتيات الطريق على أن يلتفتن اليه ! وكان سحر عينيه المذكى للعواطف، يوحى للناس بعمق افكاره ، ويضفى معنى خاصا على اتفه اشاراته •• وكانت له لحية كثة ، ناعمة ، لامعة ، تخفى ذقنا يحتمل انها كانت اعرض قليلا مما ينبغى •

وبعد أن تبادلوا بعض عبارات التحية والمجاملة ، تفرقوا كل الى وجهته ••

وبعد يومين ، قام مسيو « دولامار » بأولى زياراته ،فوصل وهم يجربون مقعدا ريفيا جديدا وضع فى صباح ذلك اليوم فقط تحت شجرة « الدلب » الطويلة المواجهة لنوافذ غرفة الاستقبال • وأراد البارون ان يقام مقعد آخر تحت أشجار الزيزفون ، ليكون مقابلا له ، لكن البارونة أبت ذلك ، اذ كانت تكره التناسق الهندسى • وعندما استشير الفيكونت، اقر رأيها •• ثم أخذ يتحدث عن المنطقة ، ذاكرا انه يراها بديعة جداً ، وانه رأى فيها خلال النزهات التى كان يقوم بها وحيدا ، كثيرا من المناظر البهيجة ••

وكانت عيناه تلتقيان بعينى « جان » بين آن وآخر ، كأنما عن مصادفة ، فكانت « جان » تلمح فى هذه النظرات تفاهما واعجابا واضحين ، وتحس ازاءها بشعور غريب ، فتشيح عنها بسرعة ••!

كان والد مسيو «دولامار» ـ الذى توفى فى العام السابق ـ صديقا حميما لمسيو « ديه كيلتو » والد البارون ، وقد أثار اكتشاف هذه الصلة ، حديثا لاينتهى عن الاقارب وعن الماضى . وكانت البارونة ـ بما أوتيت من ذاكرة لايمكن تصور حدتها ـ تسرد أنباء الاجداد وتنسب السلالات فى الاسرات الاخرى ، ضاربة خلال متاهات الانساب دون أن تضل .. ثم قالت :

ـ نبئنى يافيكونت ، هل سمعت يوما عن أسرة «ساونوى» من (فارفلير) ؟.. لقد تزوج « جونتران » ـ الابن الاكبر ـ بآنسة من أسرة كورسيل ـ كورفيى ، بينما تزوج ابن أصغر من أبنـــاء الاسرة ـ وكان من أبناء عمومتى ـ بآنسة من آل « لاروش ـ أوبير » كانت على قرابة بأسرة « كريسانج » . وكان مسيو « دو كريسانج » صديقا حميما لوالدى ، ومن ثم فلا بد انه كان يعرف اباك ايضا !؟

ـ أجل ياسيدتى .. أليس هو مسيو « دو كريسانج » الذى هاجر ، والذى أفلس ابنه ؟

ـ تماما .. لقد أراد أن يتزوج من عمتى بعد موت زوجها « كونت ديريترى » ، لكنها لم تقبل لأنه كان يدمن السعوط . وبهذه المناسبة ، هل تعرف ماذا أصاب آل « فيلواز » ؟ .. لقد تركوا (تورين) حوالى سنة ١٨١٣ ، بعد أن تعرضوا لنكبات مالية ، وذهبوا ليقيموا فى (أوفرنين) ، فلم أسمع عنهم منذ ذلك الحين نبأ

ـ أعتقد ياسيدتى ان المركيز المسن مات على أثر سقوطه عن جواده ، وقد خلف ابنتين ، تزوجت احداهما من انجليزى ، والأخرى من رجل يدعى « باسول » ، وهو تاجر غنى يقولون انه أغواها !

وأخذت هذه الاسماء ـ التى عرفتها البارونة فى طفولتها ، وتذاكرتها منذ ذلك الحين فى احاديثها مع الاقارب القدامى ـ

تتوارد على ذهنها .. وكانت الزيجات التي تعقد في تلك الأسرات ذات المراتب المتعادلة ، تتخذ في أذهانهم أهمية الاحداث العامة ذات الاهمية .. فكانوا يتحدثون عن أناس لم يروهم قط ، وكأنهم كانوا على تعارف وثيق بهم .. تماما كما كان كل فرد في الاقاليم المجاورة يتحدث عن أى شخص آخر من علية القوم ، ومن ثم لم يلبثوا أن بدأوا يشعرون بأنهم متعارفين على البعد .. وكانوا في الواقع أصدقاء وأقارب بمحض الصدف التي جعلتهم ينتمون الى طبقة واحدة ، ومرتبة واحدة .. وبحكم تكافؤ المولد

وكان البارون بطبعه لايكترث لمثل هذه المباهاة ، كما كانت تربيته تجعله ينكر المبادىء التي كان يعتنقها أبناء طبقته . ومن ثم لم يكن يعرف الكثير عن الاسرات التي في المناطق المجاورة ، فراح يسأل الفيكونت عنها ، فأجابه الفيكونت : « هناك كثيرون من طبقة النبلاء في هذه المنطقة » .. قالها بنفس اللهجة التي قد يعلن بها ندرة الارانب في التلال .

واستطرد الى التفصيل ذاكرا انه ليست ثمة سوى ثلاث أسرات تقيم في النطاق القريب من الضيعة : المركيز « دى كوتلييه » ، وهو شبه رئيس للارستقراطية المنتمية الى مناطق الشمال .. والفيكونتة « دى بريزفيل » ، وهما شخصان يؤلفان أسرة بديعة تميل الى العزلة .. وأخيرا ، الكونت « دى فورفيي » وهو متهوس الى حد ما ، يقال انه يقتل زوجته تدريجا بالحزن ، ويعيش في قصره (لا فرييت) — القائم على حافة بركة — عيشة الصياد .. ثم كان ثمة بضعة أغنياء محدثين ، ابتاعوا ضياعا في المناطق القريبة ، وتآلفوا فيما بينهم .. لكن الفيكونت لم يكن يعرفهم .

وانصرف الفيكونت أخيرا ، وهو يرمق « جان » بنظرة من يؤثرها بوداع خاص .. وداع حار ، حنون .. وانتهت

البارونة الى رأى فيه ، فقررت انه كان ساحرا ، وشابا «كاملا» قبل كل شيء ..

وقال البارون موافقا : « انه بالتأكيد سيد مهذب »

* * *

◆ **ودعواه** الى العشاء فى الاسبوع التالى ، ثم أصبح بعد ذلك يأتى بانتظام تقريبا . وكان يصل حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر ، فيتقابل والبارونة فى « طريقها » المفضلة ، ويقدم لها ذراعه تتكىء عليها وهى تقوم « برياضتها » ، فاذا لم تكن « جان » قد انصرفت ، فانها كانت تسند البارونة من الجانب الآخر ، ويسير ثلاثتهم في تؤدة من أحد الطريقين الكبيرين الى الطريق الآخر ، جيئة وذهابا الى ما لا نهاية . وكان الشاب قلما يخاطب الفتاة ، لكن عينيه ــ اللتين كانتا تلوحان كالمخمل الاسود ــ كثيرا ماكانتا تلتقيان بعينى «جان» اللتين كأنهما صيغتا من عقيق أزرق .. وما أكثر ماكانا يذهبان مع البارون الى (ايبور)

واذ كانوا عند الشاطىء ذات مساء ، اقترب الصياد المسن «لاستيك» منهم ، وقال دون أن يرفع غليونه الذى كان غيابه كفيلا بأن يدهش الناس أكثر مما لو اختفى أنفه : « فى وسعنا ياسيدى البارون أن نذهب غدا الى « اتريتا » ، ونعود دون ماتعب ، بفضل الريح »

فصفقت جان هاتفة : « أواه يا أبت ! .. ليتك توافق ! »

فالتفت البارون الى مسيو دولامار وقال : « هل يروقك هذا يا فيكونت ؟ .. فلنذهب ونتناول الغداء هناك » .. وهكذا تقررت الرحلة

واستيقظت « جان » عند الفجر ، فترقبت اباها الذى أبطأ عنها فى ارتداء ثيابه ، ثم انطلقا فى النهاية على أقدامهما تحت الطل المرطوب ، مجتازين التل أولا ،ثم الغابات التى كانت

تتردد فيها أغاريد الطيور • وكان الفيكونت و « لاستيك » جالسين عند القارب • وعاون ملاحان آخران على دفع المركب، فأسند الرجال أكتافهم الى جوانبها ودفعوها بكل قواهم ، فتقدموا فى عناء • ووضع « لاستيك » بعض اسطوانات خشبية تحت قاع المركب ، ثم عاد الى مكانه ، وصاح الصيحة التقليدية « أوه •• يو •• هو ! » ، فى جهد حاول به أن يستحث الآخرين •• وما أن بلغوا المنحدر ، حتى تمايلت المركب فجأة ، ثم انزلقت على الحصى المستدير فى ضجة عالية كصوت شراع يتمزق • ولم تقف الا عند حافة زبد الامواج الصغيرة ، فاتخذ الجميع أماكنهم على سطحها •، ثم زج البحاران اللذان بقيا على الشاطىء بالمركب فى الماء •• وهبت نسمة خفيفة ولكنها مستمرة ، فهزت سطح الماء وجعدته • وبسط الشراع فانتفخ قليلا ، ثم شرعت المركب تسير فى رفق ، لا يكاد البحر يهزها ••

ووقفوا على مبعدة من الشاطىء فى البداية •• كانت السماء الشاحبة تمتزج بالمحيط عند الافق •• وكان التل الجيرى العالى المنحدر ــ عند الشاطىء ــ يلقى ظلا عريضا تحته ، توشيه بقع مشمسة معشوشبة •• وبانت على البعد خلفهم الأشرعة البنية اللون تغادر شاطىء « فيكامب » الابيض •• وأمامهم بدت صخرة غريبة الشكل ، مستديرة ، غارقة فى الضوء ، تلوح أشبه بفيل هائل يغرق خرطومه فى الامواج •• ذلك كان مرفأ (اتريتا) الصغير •• **ووقفت « جان » ترسل البصر بعيدا ، وهى فى شبه دوار من جراء اهتزازات الامواج• ولاح لها ان ليس فى الخليقة ماهو جميل حقا سوى ثلاثة أشياء : الضوء ، والفضاء ، والماء ••**

ولزم الجميع الصمت •• وكان « لاستيك » الكهل ، الذى أمسك بذراع الدفة وحبل الشراع ، يتناول من حين لآخر

جرعة من زجاجة أخفاها تحت المقعد ، ويدخن باســـتمرار غليونه العتيق الذى لم يكن يبين له شكل ، فيتصاعد منه خيط رفيع من دخان أزرق • بينما ينساب خيط مماثل من ركن فمه • ومع ذلك فان أحدا لم ير الملاح قط يشعل التبغ أو يحشو به الغليون الذى كان أشد سواداً من الابنوس •• وكان أحيانا يتناول الغليون باحدى يديه فيقصيه عن شفتيه ، ليرسل الى البحر ـ من زاوية فمه التى ينبعث منها الدخان ـ بصقة طويلة من اللعاب البنى

وكان البارون يجلس فى المقـدمة يرقب الشراع ، ويقوم بمهمة البحار •• **بينما جلست «جان» والفيكونت متجاورين ، وقد سرى فيهما شىء من الانفعال • كانت ثمة قوة خفية تدفع أعينهما الى الالتقاء حين كانا يرفعانها فى آن واحد ، كأنما كان بهما جوع الى ذلك • كانت قد تولدت بينهما فعلا تلك العاطفة الماكرة ، الغامضة ، التى تنبعث سريعا بين أى شابين اذا لم يكن الشاب دميما ، وكانت الفتاة جميلة !•• فكأنا يشعران فى قرب كل منهما من الآخر ، بشعور من السعادة ، لعل سببه هو تفكير كل منهما فى الآخر ••**

وصعدت الشمس الى كبد السماء ، وكأنما ودت أن تطل على البحر الشاسع المترامى الاطراف تحتها •• لكن البحـر كان كالغانية الماكرة ، فلف نفسه بغلالة من ضباب خفيف حجبته عن أشعة الشمس ، بيد انه كان ضبابا شفافا ، منخفضا ، يشع الضوء ، فلم يحجب فى الواقع شيئا ، وانما جعل الاشياء البعيدة تبدو باهتة •• وركزت الشمس حرارتها على هذه السحابة المضيئة ، حتى اذا بلغت أشدها ، تبدد البخار واختفى وبدأ المحيط ـ الناعم كصفحة المرآة ـ يتألق تحت الضوء

وغمغمت « جان » وقد جاشت عواطفها :«ما أجمل المنظر؟»،

فوافقها الفيكونت ، وقد أيقظ بهاء ذلك الصباح الوضيء صدى في قلبه بدوره ٠٠ وفجأة ، لاحت « بواكى » مرفأ (اتريتا) كأنها ذراعى تل جيرى امتدتا فى الماء ٠ وكانت البـواكى عالية الى درجة تجعلها تبدو كقوس نصر أعد ليستقبل السفن، فى حين آستوت أمامها قمة صخرة بيضاء ، مدببة ٠٠ ووصلوا الى الشاطىء ، وبينما كان البارون يهبط من المركب أمسك بحبلها يشدها به الى المرساة ، **واحتوى الفيكونت « جان » بين ذراعيه ، ليحملها الى الشاطىء دون أن تبتل قدماها ٠٠ ثم سارا معا ، جنبا الى جنب ، متسلقين الشاطىء الوعر ، وقد هز هذا التقارب عواطفهما ٠ وفجأة ، سمعا « لاستيك » الكهل يقول للبارون : « هذان الاثنان فى رأيى يصلحان زوجين بديعين !»**

* * *

◆ **وكان** الغداء شهيا ، تناولوه فى فندق صغير بقرب الشاطىء ، وقد أسبغ منظر المحيط على الصوت والفكر سحرا، فجعلهم يخلدون للصمت ، بيد ان الطعام لم يلبث ان جعلهم ثرثارين ، ضحوكين ـ كتلاميذ المدارس فى يوم عطلة ! ـ فكانت أبسط آلامور تثير فيهم مرحا لا حد له ٠٠ واذ جلس « لاستيك » الى المائدة ، أخفى غليونه فى قلنسوته فى حرص ، وكان لايزال الدخان يتصاعد منهُ ، فضحكوا لذلك ٠ وأخذت ذبابة ، أغراها ولا شك أنف « لاستيك » الاحمر ، تصر على آن تحط عليه ، فكانت اذا هشها فى تباطؤ ، تحط على ستارة حريرية رصعتها قبلها ذبابات «زميلات» لها ، وقد بدت كما لو كانت تراقب فى حذر أنف البحار القانى اللون ، ثم لا تلبث أن تطير عائدة اليه ٠٠ فكانوا يضجون بالضحك فى كل مرة ، فلما تضايق الكهل وتمتم : « .انها ملحاحة لعينة ! » ظلت « جان » وآلفيكونت يضحكان حتى أغرورقت أعينهما

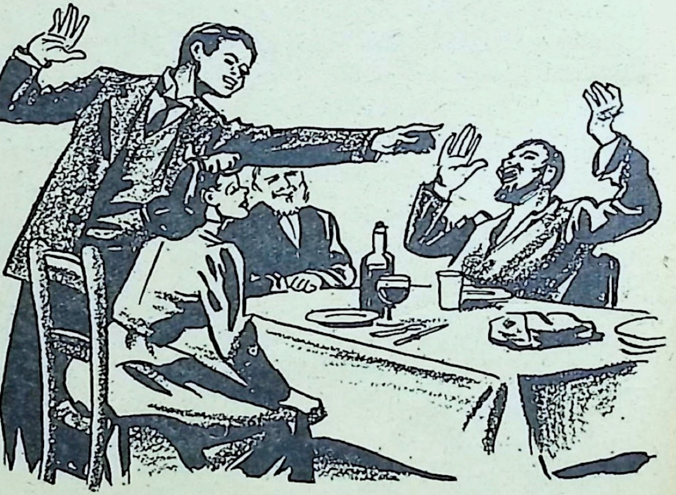

بالدموع ، وهما يكتمان قهقهتهما جاهدين ..

وقالت « جان » بعد أن احتسوا القهوة : « ما رأيكم فى أن نتمشى قليلا ؟ »

فنهض الفيكونت ، لكن البارون آثر أن يقيل فى الشمس على الشاطىء ، قائلا : « اذهبا ياولدى ، وستجداننى هنا بعد ساعة »

ومرا ببضعة أكواخ اصطفت فى خط مستقيم ، وبعد أن تجاوزا قصرا صغيرا يشبه بيتا ريفيا كبيرا ، وجدا نفسيهما فى واد مترامى الاطراف أمامهما .. وكانت حركة البحر قد أتعبتهما قبيل الغداء ، وأخلت بتوازنهما العادى ، والهواء المشبع بالملح قد أجاعهما ، فمالبث الطعام أن سكن جوعهما ،

كما أن الصخب والمـرح أوهناهما ‥ **أما الآن ، فقد أحسا بميل جامح الى أن يجريا فى رعونة خلال الحقول ‥ وشعرت « جان » بطنين فى أذنيها ، وكأنما تملكها جيشان أحاسيس كثيرة جديدة عليها ، سريعة ، متلاطمة !**

وتسلطت عليهما شمس حامية ، وكان المحصول الناضج ينحنى على جانبى الطريق بتأثير القيظ ‥ والجراد ـ المتزاحم فى كثرة كأنه خيوط العشب ـ يرسل صياحه الحاد خلال حقول القمح ، والجودار ، ونباتات المنحدرات الشوكية ، فيصم الآذان ‥ ولم يكن ثمة صوت آخر تحت السماء التى ألهبتها حرقة الشمس ‥ السماء الزرقاء ، البراقة ، التى كانت تشيع فيها أطياف صفراء ، وكأنها توشك أن تتحول الى حمرة ، كالمعادن اذا أصلتها النار ‥

ولمحا بستانا صغيرا على مسافة الى اليمين ، فسارا اليه ‥ وبين مرتفعين ، وجدا دربا ضيقا يمتد بين أشجار سامقة لا تقوى الشمس على أن تنفذ خلالها ٠ وأحسا برطوبة عليلة ‥ رطوبة من ذلك النوع الذى يقشعر له الجلد ، والذى ينفذ الى الرئتين ‥ واختفى العشب افتقارا الى الضوء والهـواء الطلق ، لكن طبقة من الطحالب أخفت سطح الارض ‥

وقالت جان : « تعال نجلس هناك ! » ‥ كانت ثمـة شجرتان عتيقتان قد جفت أغصانهما فتركتا ثغرة تدفق منها فيض من النور ، بعث فى الارض دفئا ، وأيقظ حشرات الاعشاب ، والازهار الفطرية ‥ وزخرت هذه الثغرة الدافئة ، المضيئة ـ المتوارية فى ظلال الشجيرات الكثيفة ـ بالفراشات والنحل ، والزنابير التى لا حصر لها ، وبعوض الزرع الذى كان يشبه هياكل الذباب ، وألف حشرة طائرة : منها الحمراء المرقشة والتى تميل فى اللون الى الخضرة ، ومنها السوداء ذات القرون ‥

وجلسا ورأساهما فى الظل وأقدامهمـــا فى الشمس ، يحدقان فى هذه الاسراب من المخلوقات الحية الدقيقة التى اجتذبها وأيقظ نشاطها شعاع من نور ٠ وحرك المنظر مشاعر « جان » فظلت تردد : « ما أبهجه ! ٠٠ ما أعذب مايلوح الريف !٠٠ لكم تمر بى لحظات أتمنى فيها لو أكون ذبابة أو فراشة كى أختفى بين الزهور !»

وتحدثا عن نفسيهما ، وعن عاداتهما وأذواقهما ، فى تلك اللهجة الخافتة ، المطمئنة ، التى تروى بها الاعترافات ٠ قال هو انه كان قد عاف الدنيا ، وسئم سخفها وحقارتها ، فلم ير فيها سوى الشىء المـــألوف دائما : لا صدق ، ولا اخلاص !٠٠ الدنيا ! ٠٠ كم كانت تود جان أن تعرفها ، وان كانت مقتنعة مقدما بأنها لا تعادل هذا الريف ٠٠

وكلما أخذ قلباهما يزدادان قربى ، قل نداء كل منهما للآخر بلقب « مسيو » و « مدموازيل » ، وازدادت نظراتهما تألقا وابتساما ٠٠ ولاح لهما ان عاطفة جديدة قد تملكتهما ، فأثارت فى قلبيهما عطفا مرهفا ، وفى نفسيهما اهتماما بألف شىء لم يكن ليثير اهتمامهما من قبل ٠٠

وعادا الى الشاطىء فاذا البارون قد سعى على قدميه الى « مخدع العذراء » ، وهو كهف فى حافة التل الجيرى ، فانتظراه فى الحانة حتى يعود ٠٠ ولم يظهر قبل الساعة الخامسة بعد الظهر ، بعد أن قام بنزهة طويلة على السفوح ، فلما أقبل صعدوا الى المركب التى راحت تتحرك بلطف ، حتى لم يكن يبدو أنها تتقدم ، اذ كانت الريح من ورائها ساكنة لاتتحرك ٠ ومالبث النسيم أن هب متمهلا ، فى أنفاس دافئة ، كانت تملأ الشراع لحظة ثم تتركه فارغا ، متراخيا ، ساكنا على الصارى ٠ وبدا البحر العقيقى كما لو كان ميتا ،

واقتربت الشمس فى هدوء من الافق ، وقد أنهكها الجهدالذى بذلته فى قطع طريقها المقوسة · ومرة أخرى ، فرض سكون البحر على الجماعة الصمت ·· الى أن قالت « جان » فى النهاية: « لكم أحب الترحال !»

فأجاب الفيكونت : « أجل ، ولكن ما أوحش أن يسافر المرء وحيدا ·· يجب أن يكون ثمة اثنان على الاقل ليتبادلا الافكار والانفعالات ··

ففكرت ، ثم قالت : « هذا حق ·· ولكننى أحب السفر وحيدة ·· فمن الممتع حقا ان يسافر المرء وحده »

فحدق فيها وقال : « من الممكن أن يشترك اثنان فى حلم واحد ! »

وغضت بصرها ·· أفتراه اعترافا بحب ؟ ·· ربما ! وحملقت فى الافق وكأنها تحاول أن تتجاوزه بنظراتها ·· ثم قالت فى تؤدة : « أود لو أذهب الى ايطاليا ·· والى اليونان ·· آه !·· أجل ، الى اليونان ·· والى كورسيكا ·· لابد أنها بلاد فطرية ، جميلة ! » ·· ولكنه كان يفضل عليها (سويسرا) ، ببيوتها الصغيرة وبحيراتها ، فقالت :

ـ لا ، بل اننى أحب البلاد الجديدة مثل (كورسيكا) ·· أو البلاد العريقة القدم ، المفعمة بالذكريات ، كاليونان ·· فلا بد أن من الممتع أن نشهد آثار أقوام عرفنا تاريخهم منذ الطفولة ، وأن نرى أماكن تحققت فيها جلائل الامور ··

ولم يكن الفيكونت خياليا الى هذا الحد ، فقال : « أما أنا ، فتستهوينى انجلترا ·· انها بلاد تاريخية »

وهكذا مضيا يستعرضان العالم ، ويناقشان مايروقهمامن ميزات كل بلد ، من القطب حتى خط الاستواء ، وهما يهتزان طربا للمناظر التى يتصورانها ، والعادات الغريبة لبعض

الاقوام كالصينيين وأهل « لابلاند » ، لكنهما انتهيا الى أن أجمل بلاد العالم هى فرنسا بجوها المعتدل ، الرطب صيفا ، اللطيف شتاء ، وبحقولها الخصبة ، وغاباتهـــا الخضراء ، وأنهارها الكبيرة الهادئة ، وتلك النهضة المطردة فى الفنــون الجميلة ، التى لم تقم فى أي مكان آخر منذ أمجد عصــور (أثينا)

وما لبث أن سادهما الصمت ، اذ ازداد انحدار الشمس، وبدت كما لو كانت تنزف دما ٠٠ وامتد من الافق الىالمركب خط عريض ، مضىء ، باهر ٠ وخمدت آخر اختلاجات الريح٠ وانبسطت كل انثناءة فى الماء ، وتضرج لون الشراع الهامد ٠٠ وكأنما استولى على الهواء سكون لا حد له ، أشاع الصمت فى الكون ٠٠ **بينما بدا البحر كعروس عملاقة كشفت عن صدرها الوضاء ، فى انتظار حبيبها المشبوب الوجد ، وهــو يهبط اليها ، خالعا عليها وهج ضرام شوقه الى عناقهـــا ٠٠ ومالبث أن التقى بها ، فابتلعته رويدا ، ثم انبعثت من الافق برودة ، وسرت فى الماء رعشة ، وكأنما ابتلاع الشمس نفث فى الدنيا زفرة ارتياح !**

وكانت فترة الشفق قصيرة ، فانتشر الظلام مرصعـــا بالنجوم ٠ وعمد « لاستيك » الكهل الى التجذيف ٠ ورأوا جميعا البحر مضيئا بضوء فسفورى ٠ وأخذت « جان » والفيكونت يشهدان ، متجاورين ، الوميض المرتجف الذى كانت المركب تخلفه وراءها ٠ لم يعد ذهناهما يفكران الا قليلا ، فكانا يحدقان فى ذهول مبهم ، ويتنفسان نسيم الليل بارتياح مستعذب ٠ واذ كانت « جان » تعتمد براحتها على المقعد ، مست احدى اصابع جارها بشرتها ، كأنما عن غير قصد ، فلم تتحرك ، مأخوذة ، سعيدة ، وقد غشيها اضطراب مبهم لهذا الاتصال رغم ضآلته !

◆ **وعندما** أوت الى مخدعهـــا فى ذلك المســاء ، أحست بعواطف غريبة تحرك نفسها ، حتى لقد كان كل شىء يثير لديها الرغبة فى البكاء ٠ ونظرت الى ساعتها ، فخيل اليها أن النحلة الصغيرة ـ فى ذيل البندول ـ تتخذ شكل قلب ٠٠ قلب صديق يشهد حياتها ، ويرافق أفراحها وأحزانها بتلك الدقات النشيطة ، المنتظمة ٠ فأوقفت حركة الحشرة المعدنية لتطبع على جناحيها قبلة ٠ كانت على استعداد لتقبيل أى شىء ! وتذكرت انها تخبىء فى قاع صوآنها دمية قديمة من الايام الخوالى ، فبحثت عنها ، وعثرت عليها فى اغتباط من لقى صديقا حميما ، فضمتها الى صدرها ، وغمرت بقبلات حارة وجنتيها المصبوغتين ، وشعرها الزائف المجعد

وأخذت وهى تحتضن الدمية تحلم : أتراه حقا الزوج الذى القاه القدر الحكيم فى طريقها ؟٠٠ الزوج الموعود الذى يهتف به ألف صوت خفى ٠٠ أتراه حقا الشخص الذى خلق لها ،والذى ستكرس له وجودها ؟٠٠ هل هما الزوجان اللذان قدر لهما أن تتحد عواطفهما اتحادا لا انفصال منه ، فى ظل الحب ؟

ولم تعد تشعر بتلك الانفعالات التى كان يضطرب لها كيانها ، تلك النوبات من الطرب النزق المجنون ، والفورات الشاملة التى كانت تخالها هياما ٠ ومع ذلك فقد لاح لها انها بدأت تحبه ، اذ كانت تشعر أحيانا بضعف وخور عندما تفكر فيه ٠٠ وكانت لاتنفك تفكر فيه !٠٠ كان حضوره يثير فى قلبها وجيبا عنيفا ٠٠ وكان وجهها يتضرج اذا التقت بنظراته، ثم يستحيل الى شحوب ٠٠ بل كانت ترتجف اذا سمعت صوته !

ولم تنم فى تلك الليلة الا لماما ٠٠ ثم أخذت الرغبة المتحرقة الى الحب تزداد استبدادا بها يوما بعد يوم ٠٠ وكانت تسائل نفسها باستمرار عن مآلها ، وتسائل الزهور أيضا ،والسحب،

وتطوح بالعملة فى الهواء لتتعرف فى الوجه الذى تستقرفيه، على حظها وحالها .. وذات مساء ، قال لها أبوها : « تزينى بعناية فى صباح غد » ، فسألته : « لماذا يا أبت ! » فأجاب : « هذا سر ! »

وعندما هبطت فى الصباح التالى منتعشة ، متألقة الجمال ، فى ثوب زاه ، وجدت منضدة حجرة الاستقبال مغطاة بصناديق الحلوى ، ورأت على مقعد باقة ورود ضخمة . ثم دلفت الى ساحة القصر عربة ، كتبت عليها عبارة : « ليرا - فيكامب : محل لصنع الحلوى واعداد الحفلات للأعراس » ، فأقبلت « لودفين » ومعها خادم ، تخرجان من فتحة فى مؤخرة العربة سلالا كبيرة يفوح منها عبير يثير الشهية ..

وظهر فيكونت دولامار ، وقد التف سروال الركوب حول ساقيه بأحكام ، وشد - بحزامين - الى حذائيه اللامعين الصغيرين ، الموحيين بصغر حجم قدميه . وكانت سترته الرسمية الطويلة تنسجم مع قوامه وتظهر « الدانتيلا » التى تلم بأهداب قميصه عند الصدر ، حيث تزين رقبته ربطة عنق غالية ، كثيرة الثنايا ، تضطره لان يرفع رأسه الاسمر البديع عاليا .. ونظـــرت اليه « جان » مأخوذة ، وكأنها لم تره من قبل .. وخيل اليها انه يمثل أرقى طراز للسيد المهذب .. انه سيد عظيم ، من قمة رأسه الى أخمص قدميه !

وانحنى مبتسما وهو يقول : « اهلا ياصغيرتى ..أمتأهبة انت ».

فأجابت متلعثمة : « لماذا .. ماذا هنالك ؟ »

قال البارون : « ستعلمين حالا .. »

وكانت عربة الركوب قد أعدت ، فدلفت الى مدخل القصر . وهبطت « مدام أدليد » من غرفتها فى كامل ثيابها ، مستندة الى ذراع « روزالى » التى بدت شديدة الاعجاب برشاقة السيد

لامار ، حتى أن البارون تمتم : « أعتقد يافيكونت انك وقعت موقع الرضا من نفس خادمنا ! » ، فتضرج وجه الفيكونت ، وتظاهر بأنه لم يسمع ، بل تناول الباقة الضخمة وقدمها الى « جان » ٠٠ فتناولتها وهى أكثر ذهولا مما كانت !

وصعد الاربعة الى العربة ٠ وقالت الطاهية « لودفين » وهى تحضر للبارونة قدحا من الحساء البارد ليقيم أودها : « حقا ياسيدتى ٠٠ سيقول الناس انه زفاف »

★ ★ ★

◆ **وغادروا** العربة عندما دخلوا (ايبور) ، ثم ساروا خلال القرية ، وكان الملاحون فى ثيابهم الجديدة ــ التى كانت ثناياها لاتزال واضحة ــ يغادرون دورهم لينحنوا محيين ، ويشدوا على يد البارون ، ثم يشرعوا فى السير خلفهم ، وكأنهم فى موكب ! وكان الفيكونت قد قدم ذراعه لجان ، وسار معها على رأس الموكب

وحين بلغوا الكنيسة ، وقفوا ٠ وظهر صليب فضى كبير وقد حمله ــ فى وضع قائم ــ أحد الشمامسة ، يتبعه شماس آخر فى ثوب أحمر وأبيض ، يحمل وعاء الماء المقدس ٠

ومالبث أن ظهر ثلاثة من المنشدين الشيوخ ــ أحدهم أعرج ــ يتلوهم نافخ البوق ، ثم خورى يرتدى فوق بطنه ثوب الكهنوت الموشى بالقصب وعليه رسم الصليب ، فألقى تحية الصباح مبتسما ، هازا رأسه ، ثم تبع زملاءه مغمضا عينيه نصف غمضة ، وشفتاه تتحركان فى صلاة ، وقلنسوته منحدرة الى الامام تكاد تمس أنفه ٠٠ وساروا الى البحر ٠٠

وكان ثمة جمع على الشاطىء ، أحاطوا بمركب جديدة ازدانت بأكاليل الزهور ٠٠ وقد غطى شراعها وصاريها وحبالها بشرائط طويلة أخذت تهتز مع النسيم ٠٠ وظهر على هيكلها اسم « جان » بحروف من ذهب !

وكان « لاستيك » ــ ربان هذه المركب التى شيدت من مال البارون ــ على رأس الموكب • وخلع جميع الرجال قبعاتهم فى آن واحد ، بينما ركع صف من الرهبان ذوى العباءات السوداء الفضفاضة التى انسابت من فوق أكتافهم متهدلة حين رأوا الصليب ••

ووقف الخورى بين الشماسين فى أحد طرفى المركب ، بينما وقف المنشدون الثلاثة فى ثيابهم البيضاء الكالحة فى الطرف الآخر ، وكانت لحاهم نابتة ، وعلى مظهرهم امارات الجد ، وقد علقت أنظارهم بكتاب الاناشيد ، ورفعوا عقائرهم فى الصباح الوضاح يترنمون بأعلى أصواتهم ، بنغمــة نشاز !

وكأنما كان البحر الهادىء ، الشفاف ، يساهم فى حفلة تدشين السفينة ، فلم يكن به حراك ولا ضجيج اللهم الا صوتا ضئيلا كذلك الذى يحدثه « الجاروف » فى الحصى •• ولم تزد أمواجه عن ارتفاع أصبع واحدة فوق سطحه •• وحومت طيور البحر البيضاء الكبيرة فى السماء ، باسطة أجنحتها ، ذاهبة غادية فى حلقات فوق الجمع الراكع ، وكأنما كانت تبغى بدورها أن تشهد ماكان يجرى ••

وتوقف الانشاد بعد خمس دقائق ، فلفظ الكاهن ، فى صوت متهدج ، بضع كلمات لاتينية لم يتضح منها سوى مقاطعها الأخيرة الطنانة • ثم سار بعد ذلك حول السفينة ناثرا عليها الماء المقدس ، وبدأ يتمتم بالصلاة ، وقد وقف على قيد خطوات من «اشبين» و «اشبينة» السفينة ــ الفيكونت و « جان » ــ اللذين وقفا بلا حراك وقد تشابكت يداهما ••

وكانت تبدو على وجه الشاب أسارير الوقار • أما الفتاة ، فقد غص حلقها بانفعال مفاجىء ، فتهدجت أنفاسها ، وأخذت ترتجف فى عنف جعل أسنانها تصطك •• اذ رأت الحلم الذى

راودها بعض الوقت قد اتخذ مظهر الحقيقة ، فى نوبة من الهذيان !.. فلقد تكلم بعضهم عن « الزفاف » ، وكان فى الحفل قس ، وعدد من رجال الكنيسة يرددون الترانيم .. أو لا يذكر هذا بعقد القران ؟.. أولم تحس هزة عصبية فى أصابع الشاب المتشابكة مع أصابعها ؟.. فهل سرى فيض من قلبها فى عروقها وانتقل الى قلب زميلها ؟.. أتراه فهم؟.. أتراه خشع ؟.. هل انتابته ـ كما انتابتها ـ نشوة من الحب ؟.. أم تراه يعرف فعلا ، بالتجربة ، ان ليس فى وسع امرأة أن تصده وتقاومه ؟

وفطنت فجأة الى أنه كان يضغط راحتها ، برفق فى البداية ، ثم اشتد ضغطه حتى أوشك أن يهشمها .. وبدون أن يحول وجهه ، أو يدع أحدا يلاحظ ، قال .. أجل ، قال ، وفى وضوح : « أواه ياجان ! .. لو شئت لكان هذا عقد قراننا ! » .. فأحنت رأسها فى حركة بطيئة ، يمكن أن تعنى : « نعم » .. وفى تلك اللحظة نثر القس قطرات من الماء المقدس على أصابعهما ..

* * *

◆ **وانتهى** حفل تدشين السفينة .. ونهضت النساء .. وكانت العودة مقرونة بالعجلة ، حتى فقد الصليب الذى كان بين يدى الشماس جلاله ، فاختفى سريعا عن الانظار ، وهو يميل من اليمين الى اليسار ، أو الى الأمام ، فيوشك أن يسقط على أنف أى امرىء من السائرين !.. وكان الخورى ـ الذى كف عن الصلاة ـ يوسع الخطى ليلحق بالجمع ، وقد اختفى المنشدون ونافخ البوق سالكين أحد الطرق الجانبية . وأسرع البحارة منصرفين زرافات ، وقد خالجتهم فكرة واحدة ملأت رؤوسهم بالنكهة التى كانت تتصاعد من المطابخ ، فاستحثت سيقانهم وأسالت لعابهم : فكرة ان ثمة غداء شهيا ينتظرهم فى قصر « الحور » !

وكانت المائدة الكبيرة قد مدت فى ساحة القصر تحت شجر التفاح ، فجلس اليها ستون شخصا بين ملاحين وفلاحين ، وقد توسطتهم البارونة ، والى جانبيها القسان ــ قس (ايبور) وقس القرية ــ وجلس أمامها البارون يحف به العمدة وزوجته التى كانت ريفية عجفاء بلغت الشيخوخة، وقد طفقت تنحنى محيية فى كل اتجاه ٠٠ وكان لها وجه نحيل مستطيل ، أحاطت به قبعة كبيرة من الزى الشائع فى اقليم (نورماندى) ، فبدا رأسها كرأس دجاجة ذات عرف أبيض !٠٠ كما كانت لها عينان مستديرتان تلوح الدهشة فى نظراتهما باستمرار ٠ وكانت تتناول طعامها فى لقيمات صغيرة سريعة التتابع ، وكأنها دجاجة تلتقط من الطبق بأنفها !

وكانت « جان » غارقة فى السعادة الى جوار الفيكونت ، فلم تعد ترى أو تدرك شيئا ، وقد أذهلها الابتهاج تماما ٠٠ سألته : « ما اسمك الاول ؟ »

فأجاب : « جوليان •• أولم تكونى تعرفين ؟ »
ولم تجب ، اذ راحت تفكر : « ما أكثر ماسوف أردد هذا الاسم ! »
وعندما رفعت المائدة ، تركوا الساحة للبحارة ، وساروا الى الطرف الآخر من القصر • وشرعت آلبارونة فى رياضتها معتمدة على ذراع البارون ، يحف بهما القسان • أما « جان » و « جوليان » فاتجها الى البستان ، خلال أحد المسالك التى تكاثف الشجر على جانبيها ••

وفجأة ، أمسك الشاب بيد مرافقته وقال : « هل تقبلين أن تصيرى زوجتى ؟ »
فأحنت رأسها مرة أخرى •• واذ قال متلعثما : « أجيبى ! •• أتوسل اليك ! » ، رفعت عينيها متطلعة اليه فى رفق •• فقرأ الجواب فى عينيها !

الفصل الرابع

• **أقبل** البارون على غرفة « جان » مبكرا ذات صباح ، فجلس على حافة السرير ، وقال : « لقد طلب الفيكونت « دى لامار » يدك ! •• وودت « جان » لو تخفى وجهها تحت أغطية الفراش ، بينما استطرد أبوها : « وقد أرجأنا جوابنا بعض الوقت •• »

وشهقت « جان » ، والانفعال يكاد يخنقها ! وبعد لحظة أضاف البارون ، الذى كان يبتسم : « لم نشأ ان نبرم أمرا دون أن نتحدث معك فيه • اننى وأمك لا نعارض مثل هذا

الزواج ، وان كنا لا نرغب فى أن ندفعك اليه ٠٠ انك أغنى منه بما لايقاس ، ولكنا لا نفكر فى المال كثيرا ، عندما يتعلق الأمر بسعادة العمر ٠٠ ان الشـــاب يتيم الابوين ، فاذا تزوجت منه ، فسوف نعتبره ابنا ضم الى أسرتنا ٠ أما اذا تزوجت من سواه ، فلسوف تكونين أنت ـ ابنتنا ـ التى تنتقل عندئذ للعيش بين أغراب ٠٠ وان الشاب ليروقك فيما ألحظ ٠٠ فما قولك »»

فأجابت متلعثمة ، متضرجة الوجه : « اننى أقبل يا أبى »

فتفرس أبوها فى وجهها ، وغمغم وهو مازال يبتسم :«هذا ماتوقعته ياآنسة ! »

ظلت « جان » فى شبه نشوة من الانفعال العاطفى حتى المساء ، لاتكاد تعى ماتفعل ، فهى تخلط بين الاشياء ، وساقاها تنضحان ألما دون أن ترهقهما بالسير ٠٠ **وحـوالى الساعة السادسة ، أقبل الفيكونت ، وكانت تجلس مع أمها تحت شجرة الدلب ، فشرع قلبها يخفق فى عنف ٠٠ وتقدم الشاب دون أن يبدو عليه أى اضطـراب ، حتى اذا بلغ مكانهما ، تناول أصابع البارونة فقبلها ، ثم رفع يد الشابة المرتعشة فطبع عليها قبلة طويلة ، فيها حنان ، وشكر ، وعرفان ! »**

◆ **وبدأ** عهد خطوبتهما ، فصارا يتحدثان على حدة فى ركن من حجرة الاستقبال ، أو على السفح القائم عند أقصى البستان مشرفا على الارض الخالية الوعرة ٠٠ وأحيانا كانا يسيران فى « طريق البارونة » ، فيتحدث هو عن المستقبل ، بينما تغض الفتاة عينيها تحدق فى الطريق

وما أن استقر الرأى ، حتى أخذا يتعجلان الأمور ٠ وتم الاتفاق على أن يعقد القران بعد ستة أسابيع ، فى الخامس عشر من أغسطس ، وأن يشرع الشابان فورا فى رحلة

العرس · وكانت « جان » قد أعربت عن رغبتها فى الذهاب الى « كورسيكا » ، حيث يمكن الظفر بخلوات هادئة لا تتاح فى المدن الايطالية ·

وارتقبا الزفاف فى صبر نافد ، متقلبين فى أعطاف حنان عذب ، مستمرئين سحر مناجاة لا معنى لها ، واشتباكات بين الاصابع ·· وكانت نظراتهما الوالهة تستطيل حتى ليخيل اليهما ان روحيهما قد امتزجا فى واحد !

وقرروا أن لايدعوا الى الزفاف أحدا ، اللهم الا الآنسة « ليزون » أخت البارونة العانس ، التى كانت تقيم كنزيلة فى دير بفرساى · وكانت البارونة قد رغبت فى أن تستبقى أختها معها بعد وفاة ابيهما ، لكن العذراء العجوز تملكها الاعتقاد بأنها عالة على الجميع ، غير ذات نفع ، بل مصدر ازعاج ·· فأوت الى احدى تلك الدور الدينية التى تؤجر غرفها لأسرى الاحزان والوحدة الموحشة ·· مكتفية بأن تأتى من حين الى آخر لتقيم شهرا أو اثنين مع الاسرة · وكانت قلة فى الجسم ، مقلة فى الكلام ، لا تظهر الا فى أويقات الوجبات ، ثم ترتد الى غرفتها فتحبس فيها نفسها أكثر الاوقات · وكان يبدو عليها الهدوء الورع والاكتهال – رغم انها لم تتجاوز الثانية والاربعين – ومن عينيها تفيض الدعة والأسى ·· ولم يكن لها رأى قط فى أى من أمور الاسرة · وقد عاشت صباها لا تلقى قدرا يذكر من العطف أو التدليل – سيما وانها لم تكن جميلة ، أو خفيفة الروح – بل انها كانت ، حتى فى طفولتها ، الضحية التى تهمل دائما من أجل سواها · كما لم يولها احد اهتماما فى شبابها ·· فشبت منطوية ، تؤثر الانزواء غالبا فى الاركان ! ·· كانت كظل ، أو كشىء مألوف ·· كقطعة أثاث حية تعود الناس أن يروها فى كل يوم ، دون أن يزعجوا أنفسهم بأمرها !

وكانت أختها تعتبرها ـ بحكم ما خبرته فى دار أبويهما ـ مخلوقا غريبا ، غير ذى قيمة ، اذ كانوا يعاملونها فى ألفة مستهينة ، تخفى نوعا من النفور الذى لا ينطوى على خبث ٠٠ وكانت فى البداية تدعى «ليز» ، ثم بدا أن هذا الاسم «البناتى» المرح ، يضيرها ٠ فلما ظهر أن لا زواج لها ، استبدلوا «ليزون» باسم «ليز» ٠ حتى اذا ولدت «جان» أصبحت العانس تدعى « الخالة ليزون » ، القريبة المتواضعة ، الساذجة ، المفرطة الحياء حتى مع أختها وزوج أختها !٠٠ وكان البارون يحبها لكل هذا ، فى عطف مبهم تكون من خليط من ٠٠ عدم اكتراث ، ورحمة غير واعية ، وبر طبيعى ٠٠

وكانت البارونة اذا تكلمت أحيانا عن ذكرى بعيدة ، من عهد صباها ، تقول لتحدد تاريخها : « كان ذلك فى أيام التصرف الاخرق الذى أقدمت عليه ليزون » ٠٠ لكن هذه الاشارة لم تكن تقترن بأى ايضاح ، وظل ذلك « التصرف الاخرق » مستترا فى غلالة من الغموض ! ٠٠

كانت «ليز» فى العشرين من عمرها حين ألقت بنفسها ذات مساء فى البحر ، دون أن يدرى أحد لذلك سببا ، فما كان فى حياتها ، ولا فى مسلكها ، ما أنذر بهذه الحماقة ٠ ثم أنقذت وقد أشرفت على الموت ، وبدلا من أن يبحث أبواها عن السبب، رفعا أيديهما فى كبرياء،وقنعا بالحديث عن «التصرف الاخرق»، كما كانا يتحدثان عن الحادث الذى جرى للحصان «كوكو» حين كسرت ساقه قبيل ذلك بقليل فى نوبة من الهياج الجنسى ، واضطروا الى قتله

ومنذ ذلك الحين اعتبرت «ليز» ـ أو «ليزون» كما أصبحت تسمى فيما بعد ـ ضعيفة العقل ٠ وشاع النفور الخفيف الذى أثارته فى البداية فى نفوس أقرب أهلها ، فشمل رويدا كل من عرفها ٠٠ حتى ان «جان» الصغيرة لم تولها اهتماما ،

مسوقة بتلك الغريزة الفطرية لدى الاطفال ، ولم تسع قط اليها لتقبلها ، أو تدخل غرفتها ٠٠ وكأنما لم يكن يعرف موقع هذه الغرفة سوى « روزالى » التى كانت تقوم لها بمهام العناية الضرورية ٠٠

وكانت « الخالة ليزون » اذا ولجت قاعة المائدة للافطار ، سعت اليها «الصغيرة» ـ بحكم العادة ـ وقدمت لها جبينهـا لتطبع عليه قبلة ٠٠ وحسب !٠٠ واذا شاء أحد أن يتحدث اليها ، أوفدت خادم لتدعوها ، فاذا لم تكن فى غرفتها ، لم يعن أحد بالبحث عنها ، بل ان أحدا لم يتجشم يوما عناء القلق لغيابها أو ملاحظة مرور يوم دون أن يراها خلاله ٠٠

لم يكن لها أى مركز معين ٠ كانت من تلك المخلوقات التى تعيش مغمورة حتى لدى أقاربها ـ فكأنها كائن مجهول لم يكتشف أحد حقيقته ـ وماكان موتها ليخلف فراغا أو ثغرة فى بيت ، شأنها شأن الكائنات التى لا تعرف كيف تدخل فى وجود ـ أو فى عادات ، أو حب ـ أولئك الذين تعيش الى جوارهم ٠ وما كانت كلمتا « الخالة ليزون » ـ اذا لفظتا ـ لتثيرا فى الواقع أية عاطفة فى نفس أى فرد ، تماما كما لو قال امرؤ : « ابريق القهوة » أو « طبق السكر » !

وكانت تسير دائما بخطى سريعة ، ساكتة ، فلم تحدث قط صوتا ، ولا اصطدمت بشىء فى سيرها ، وكأنما كانت توحى الى الاشياء بأن لا تحدث أصواتا ، أو كأن يديها كانتا من قطن ، فهما تتناولان كل ما تمسانه فى خفة ورفق ولطف !

وجاءت « الخالة ليزون » حوالى منتصف شهر يوليه وقد أزعجتها فكرة هذا الزواج ٠ وأحضرت معها طائفة من الهدايا ، لم يحفل بها أحد ، لأنهـــا جاءت منها ! ومنذ اليوم التالى لوصولها لم يعد أحد يشعر بأنها موجودة ٠ لكن عاطفة غريبة كانت تجيش بنفســـها ، فكانت لا تكاد تحول عينيها عن

الخطيبين ! ٠٠ واستغرقت فى نشاط محموم لاعداد ثوب الزفاف ، فعكفت عليه بحذق الحائكة ، فى غرفتها التى لم يكن يفد عليها أحد ليراها ٠٠

وكانت فى كل صباح تهدى البارونة مناديل طرزتها بنفسها، أو مناشف زينتها بوشى من صنعها ، وتسألها : « أيعجبك هذا ياأدليد ؟ » ، فكانت البارونة تجيب ، وهى تفحص الشىء فى غير مبالاة : « لا تجشمى نفسك كل هذا العناء يا عزيزتى ليزون المسكينة » ٠٠ وذات يوم ، حوالى نهاية الشهر ، أشرق القمر بعد يوم شديد القيظ ، وجاء الليل صحوا ، دافئا ، يثير النفس ويوقظ كل الشاعرية الكامنة فيها ٠ وأخذت أنفاس الحقول تسرى ناعمة الى حجرة الجلوس حيث كانت البارونة وزوجها يلعبان الورق فى فتور ، فى نطاق الضوء الذى كان يلقيه المصباح على المنضدة٠وكانت الخالة ليزون تجلس بينهما، تطرز ، **بينما وقفت جان والفيكونت الى النافذة يطلان على الحديقة المستلقية فى ضوء القمر ٠٠ وكانت الاشجار الباسقة تلقى ظلالها على المرج الشاسع ، الذى امتد شاحب اللون ، حتى حافة البستان المعتم ٠٠**

ولم تقو « جان » على مقاومة سحر الليل الفاتن ، وهالة الضوء المنعكس على الاشجار ، فالتفتت الى والديها وقالت : « أبت ! ٠٠ سنخرج لنتمشى على العشب أمام البيت »

فأجاب البارون دون أن يكف عن اللعب : « امضيا ! »

وخرجا ، ثم شرعا يخطران على أرض المرج التى خلع عليها ضوء القمر لونا فضيا ، حتى بلغا البستان الصغير ٠٠ ومر الوقت دون أن يفكرا فى العودة ، مما أقلق البارونة التى كانت تريد أن تصعد الى غرفتها ، فقالت : «ينبغى أن ندعو العاشقين!»

فألقى البارون نظرة على الحديقة المضيئة ، حيث رأى طيفيهما يخطران ، وقال : « دعيهما وشأنهما ، فان الكون بديع فى

الخارج . وسوف تنتظر ليزون عودتهما .. أليس كذلك ياليزون ؟»

فرفعت العانس العجوز عينيها المكدودتين ، وقالت فى صوتها الخجول : « بالتأكيد.. سأنتظرهما »

وأعان البارون زوجته على النهوض ، وقال وهو مضنى بدوره من حر اليوم : «سأذهب أنا أيضا الى فراشى» .. وانصرف مع البارونة

ومالبثت الخالة ليزون أن نهضت ، فوضعت قطعة التطريز التى لم تتمها على مسند المقعد ، وسارت الى النافذة لتتملى بسحر الليل . وكان الخطيبان يسيران فى المرج جيئة وذهابا ، وكأنهما لا يبغيان لنزهتهما نهاية . وكان كلاهما ممسكا بيد الآخر ، دون كلام ، وكأنهما لم يعودا الشخصين اللذين كانا هما ، بل امتزجا بشاعرية منبعثة من الارض .. ولمحت « جان » فجأة طيف العانس العجوز فى فراغ النافذة ، فقالت : « ها هى ذى الخالة ليزون تطل علينا .. »

ورفع الفيكونت رأسه ، وأجاب بذلك الصوت الفاتر الذى يتكلم عن غير تفكير : « أجل ٠٠ الخالة ليزون تطل علينا » ٠٠ ثم واصلا حلمهما ، وسيرهما المتئد ، ونجواهما ٠٠ بيد أن الطل لم يلبث أن تكاثف ، فارتعشا قليلا من الرطوبة ، وقالت جان : « هيا ندخل الدار » ٠٠ فمضيا الى الداخل ٠

واذ دخلا قاعة الجلوس ، رأيا الخالة ليزون وقد عادت الى التطريز ، عاكفة منحنية على رقعة القماش ، وأصابعها ترتجف قليلا ، كأنها منهوكة ٠ فاقتربت «جان» منها وقالت : « سنأوى جميعا الى مخادعنا يا خالتى »

فأشاحت العذراء العجوز ، ولكن عينيها ظهرتا شديدتى الاحمرار ، كأنما كانت تبكى ! ولم يلق العاشقان بالا الى ذلك ، غير أن الشاب لم يلبث أن لاحظ فجأة أن حذاءى الفتاة مكسوان بالطل ، فتساءل فى حنان : « ألم يصب البرد قدميك ؟ » ٠٠ **وبغتة ، تولت أصابع الخالة رجفة شديدة فأفلتت قماش التطريز ، وتدحرجت كرة الخيط على الارض ٠٠ وأسرعت تخفى وجهها فى راحتيها ، ثم أخذت تبكى فى نهنهة عالية !٠٠ ونظر اليها العاشقان فى دهشة ، دون أن يتحركا ٠٠ وخفت «جان» اليها ، فأمسكت بيديها وتساءلت : « ماذا جرى ؟ ٠٠ ماذا جرى ياخالة ليزون ؟ »**

واذ ذاك أجابت المسكينة فى كلمات متعثرة ، دامعة ، وقد انكمش جسمها حزنا وأسى : « انما أثارنى أن سألك عن قدميك ٠٠ ان كان أصابهما برد ٠٠ قط لم يسألنى أحد عن شىء كهذا ٠٠ أبدا ٠٠ أبدا ! »

وذهلت « جان » ، وأحست باشفاق ، ومع ذلك فقد ودت لو تضحك اذ تصورت عاشقا يحيط الخالة ليزون بالحنان !٠٠ وانتحى الفيكونت جانبا يخفى اشمئزازه واستنكاره ٠٠ بيد أن الخالة نهضت فجأة ، تاركة خيطها على الارض ، وقماشها

على المقعد ، وصعدت السلم المظلم دون ما ضوء ، الى غرفتها ٠٠ واذ أنفرد الشابان ، حدق كل منهما فى الآخر ، فى عجب وتأثر ٠٠ وتمتمت جان : « يا للخالة المسكينة ! ٠٠ ان بها الليلة مسا ! » ٠ وأمسك كلاهما بيدى الآخر فى رفق بالغ ، وتبادلا أول قبلة فى غرامهما ، أمام المقعد الخالى الذى خلفته الخالة ليزون !

* * *

◆ وفى اليوم التالى لم يفكرا فى دموع العذراء العجوز ٠ وغدت جان فى الاسبوعين السابقين للزفاف هادئة ، ساكنة ، كأنما أنهكتها الانفعالات العارمة ٠ ولم تكن تجد متسعا من الوقت للتفكير فى اليوم الحاسم الموعود ٠٠ لم تكن لتحس بغير فراغ عاطفى كبير استولى على كيانها ، وكأنما ذاب لحمها ودمها وعظامها تحت جلدها ! ٠٠ ولاحظت أن أصابعها كانت كثيرا ما ترتعش اذا مست مختلف الاشياء ٠٠ ولم تستعد تمالكها واتزانها حتى حلت ليلة الزفاف ٠

الزفاف ! ٠٠ اذن فقد تزوجت !٠٠ كانت الاشياء والحركات والاحداث فى تتابعها ـ منذ فجر ذلك اليوم ـ تبدو لها حلما ٠٠ حلما حقيقيا ! ٠٠ هناك لحظات يبدو لنا فيها كل ما حولنا متغيرا ٠٠ حتى الحركات تظهر لها معان جديدة ٠٠ بل ان التغير يصل الى الدرجة التى نخال عندها أن بعض ساعات الزمن لا تسير وفق ترتيبها الطبيعى !

على أن « جان » كانت تحس يوم الزفاف بالحيرة والذهول أكثر منها بأى شىء آخر ٠٠ انها لم تلمس تغيرا فى وجودها فى اليوم السابق ٠٠ كل ما هنالك أن أمل حياتها لاح أقرب من ذى قبل ، بل لاح محققا تقريبا ! ولقد أوت الى مخدعها ـ بالامس ـ وهى فتاة صغيرة ، أما الآن فقد غدت امرأة ! ٠٠

عبرت السياج الذى كانت تخال أنه يحجب المستقبل بمباهجه ، وسعادته التى طالما حلمت بها ٠٠ وأحست كأنما كان أمامها باب مفتوح : انها توشك أن تلج العالم المرموق !

وانتهت الحفلة الكنسية ، فتحولوا الى الهيكل الذى كان شبه خال ، لأن أحدا لم يدع لحضور الحفل ٠ ثم خرجوا ، فما أن ظهروا لدى باب الكنيسة ، حتى انبعثت ضجة قوية أفزعت العروس ، وجعلت البارونة تصرخ عاليا ٠٠ كانت عاصفة من طلقات بنادق الفلاحين ٠ وظلت الطلقات تترى حتى مشارف قصر « الحور »

وقدم الغداء الخفيف للأسرة ، وقس القرية وقس « ايبور » ، والزوج ، والشهود الذين اختيروا من بين كبار مزارعى المناطق المجاورة ٠ ثم انفض الجمع الى الحديقة فى انتظار العشاء ٠ وشرع البارون والبارونة والخالة ليزون والعمدة والاب بيكو يتمشون فى طريق نزهة البارونة ، بينما كان القس الثانى فى الطريق الآخر - الموازى - يقرأ صلواته وهو يمشى بخطى واسعة ٠ وكانت مظاهر ابتهاج الفلاحين تتصاعد من الجانب الآخر للقصر ، حيث كانوا يعبون خمر التفاح « السيدر » تحت أشجار التفاح ٠٠ كانت ساحة القصر تزخر بأهل الريف فى خير ثيابهم ٠٠ وكان الصبية والبنات يطارد بعضهم بعضا فى أرجاء المكان ٠٠

واجتازت «جان» مع «جوليان» البستان ، وتسلقا سفح التل الجيرى ، وشرعا يتأملان البحر فى صمت ٠٠ وكانت فى الجو نفحة من البرودة خفيفة ، رغم أن شهر أغسطس كان قد انتصف ٠٠ كانت ريح الشمال تهب ، والشمس الساطعة تسخو بضوئها فى السماء الزرقاء ٠ وعبر «جان» و «جوليان» منطقة النباتات الشوكية ، وانحرفا يمينا نحو الوادى المكسو

بالغابات ، المترامى فى اتجاه (ايبور) · وما أن بلغا الدغل ، وخلفا الطريق الى درب ضيق كامن بين الاشجار الكثيفة ، حتى ركد الهواء فلم تهب عليهما منه نسمة ·· فتركا الطريق العمومى ليسلكا دربا ضيقا مدفونا وسط الدغل ، بحيث لم يستطيعا التقدم فيه آلا بصعوبة ·

وأحست «جان» بذراع تتسلل في رفق حول خصرها ·· فلم تقل شيئا ، وانما تسارعت خفقات قلبها ، وتهدجات أنفاسها ! ·· وأخذت الاغصان المنخفضة تداعب رأسيهما ، وتضطرهما فى كثير من الاحيان الى الانحناء كى يمضيا فى طريقهما ·· والتقطت «جان» فرعا صغيرا مورقا ، فاذا برعمان أحمران صغيران يكمنان تحت احدى ورقات الفرع · واذ ذاك قالت جان فى براءة ، وشىء من الثقة : « أنظر ! ·· هذا بيت زوجية صغير ! »

فقرب «جوليان» فمه من أذنها وقال : « الليلة ستغدين زوجتى ! » ·· ومع أنها كانت خلال اقامتها فى الريف قد تعلمت أمورا كثيرة ، الا أنها لم تكن قد فكرت فى غير الجانب الشعرى من الحب ، ومن ثم فقد عجبت مما كان يقصده : زوجته ؟ ·· أو لم تصبح زوجته فعلا ؟

وما لبث أن تحول يغرقها بقبلات سريعة ، قصيرة ، على فوديها وعند منابت الشعر فى عنقها ·· وكانت تهتز فى كل مرة لقبلات هذا الرجل ، فما كان لها قبل بها ، ومن ثم انحرفت برأسها ــ بحركة غريزية ــ لتتفادى قبلاته التى أحست لها ــ رغم ذلك ــ بلذة ! ·· على أنهما لم يلبثا أن وجدا نفسيهما فجأة عند حافة الغابة ، فتوقفت عن السير وقد ارتبكت اذ تبينت أنهما ابتعدا الى هذا الحد ، وقالت : « ترى ماذا سيظن الناس بنا ؟ ·· لنعد ! »

فسحب ذراعه من حول خصرها ، واذ استدارا للعودة ، أصبح كل منهما أمام الآخر وجها لوجه ، متقاربين حتى أن كل منهما أحس بأنفاس الآخر على وجهه ·· وحملق كل فى صاحبه ، بنظرات من ذلك النوع الحاد ، النافذ ، المتفحص، الذى تندمج فيه نفسان ·· وحدق كل فى عينى الآخر ، غائصا فى مجاهل نفسه ·· وردد كل ما جال فى نفس الآخر من تساؤل صامت ، طويل : « ما الذى سيكونه كل منهما للآخر ؟ ·· ما الذى ستسفر عنه هذه الحياة التى يبدآنها معا ؟ ·· أية أفراح وسعادة ، أو أوهام خائبة ، تكمن لكل منهما فى هذا الزواج الذى يربطهما معا برباط طويل العمر لا فكاك منه ؟·· وخيل لكل منهما انه لم ير صاحبه من قبل !

وبغتة ، وضع «جوليان» راحتيه على كتفى زوجته ، وطبع على فمها قبلة طويلة لم يسبق لها بمثلها عهد ·· ونفذت تلك القبلة خلال شرايينها الى نخاع عظامها ، باعثة في كيانها هزة جعلتها تدفعه عنها بكلتا ذراعيها فى عنف كادت تقع من شدته وقالت متلعثمة : « لننصرف من هنا ·· لننصرف من هنا ! »

ولم يجب ، بل أمسك بيديها فى راحتيه ·· ولم يتبادلا كلمة ما ، حتى بلغا الدار ·· وبدت لهما فترة ما بعد الظهر طويلة لا تكاد تنقضى !

* * *

◆ **والتأم** الجمع حول المائدة مع مهبط المساء ·· وكان العشاء بسيطا ، لم يطل ، على نقيض المألوف لدى أهل الشمال ، وقد غشيت الضيوف نوبة من جمود ، فيما عدا القسيسين والعمدة الذين أظهروا شيئا من ذلك الابتهاج الثقيل الذى يقترن عادة بحفلات الزواج · وبدا الضحك أجوف خاليا من الحياة ، وان بعثت فيه فكاهة العمدة شيئا من « الروح » ··

وحوالى الساعة التاسعة ، وقد شرعوا يحتسون القهوة ، بدأ الرقص تحت أشجار التفاح فى الساحة الامامية خارج القصر .. وكانت حلقات اللهو والقصف تبدو خلال النافذة المفتوحة ، وقد أضفت الشموع المعلقة فى الاغصـان خضرة سمراء على أوراق الشجر .. وأخذ الراقصون من أبناء الريف يترنحون وهم يغنون لحنا عاليا ، يصاحبهم فى رفق كمانان ومزمار ، جلس عازفوها على مائدة مطبخ كبيرة استخـدمت « كمسرح » ! وكان غناء الفلاحين الصاخب يطغى أحيانا على الآلات ، فتبدو الالحان المنخفضة وقد قطعتها الاصوات غير المنسقة ، كأنما تتساقط من السماء فضلات مهلهلة ..

وكان يوفر الشراب للجميع برميلان كبيران تحيط بهمـا مشاعل متقدة .. وكان ثمة خادمان منهمكين باستمرار فى غسل الكؤوس والاقداح فى حوض ، وحملها ، والماء يتقاطر منها ، الى فوهتى صنبورين ينساب منهما سيل من النبيـذ الاحمر ، أو خمر التفاح الصافية .. والراقصون الظامئون يلتفون حولهما ـ وقد بدا الهدوء على الكبار منهم ، وتفصد العرق من البنات ـ والجميع يبسطون أيديهم ليملأوا أقداحهم ويرفعوها الى حيث يفرغونها فى أجوافهم دفعة واحدة ..

وكان ثمة خبز وزبد وجبن وسجق على احـدى الموائد ، يتناول كل امرىء منها لقمة بين وقت وآخر ..وبعث هذا الفرح المشبوب ، تحت الاغصان المضيئة ،.الرغبة فى نفوس الضيوف الذين كانوا فى قاعة الطعام ، كى يرقصـوا هم بدورهم ، ويشربوا من البرميلين الـكبيرين ، وأن يأكلوا شرائح الخبز والزبد والبصل الاخضر ..

وصاح العمدة الذى كان يقوم ـ بسكينة ـ بمهمة ضابط الايقاع ، محافظا على «وحدة» الانغام : « ياللسماء !.. هذا هو اللهو .. ان هذا ليشبه زفاف جاناش ! »

وسرت فى الجمع ضحكات مكتومة • لكن الاب «بيكو»ـ العدو الطبيعى للسلطة المدنية ـ أجاب : « تقصد زواج كنعان » • لكن الآخر لم يقبل هذا التصحيح ، فقال : « لا يا سيدى القس •• اننى أعنى ما أقول • عندما أقول جاناش ، فانما أعنى جاناش »

ونهضوا فساروا الى قاعة الجلوس ، ثم اختلطوا بالجمع المرح برهة ، حتى انصرف الضيوف أخيرا •• واذ ذاك دار بين البارون والبارونة نزاع خافت • وبدا ان البارونة ـ التى كانت تجادل فى صوت خفيض أكثر مما اعتادت ـ كانت ترفض ما أخذ البارون يسألها اياه • وقالت أخيرا : « لا يا صاحبى ، لا أستطيع •• لست أدرى كيف أعالج المسألة »

فتركها البارون عند ذاك فى حدة ، واقترب من «جان» فقال لها : « هل لك فى أن تتمشى معى يا ابنتى ؟ »

وتأثرت الفتاة لهذه الدعوة ، فأجابت : « لك ما تشاء يا أبت »

وخرجا معا ، فما أن أصبحا خارج القصر ، فى الناحية التى فى اتجاه البحر ، حتى هبت عليهما نسمة خفيفة من نسمات الصيف العليلة التى لها رائحة الخريف • •وكانت السحب تسبح فى السماء ، تحجب الكواكب آنا ، وتكشفها آنا آخر •• وضم البارون ذراع ابنته اليه فى وجد وهو ممسك براحتها •• وسارا بضع دقائق ، والبارون بادى التردد والحيرة •• ثم حزم أمره فى النهاية ، وقال : « **اننى أقوم الآن بدور شاق يا حبيبتى ، كان ينبغى أن تقوم به أمك •• أما وهى ترفض أداءه ، فلا بد لى من أن أتولاه مكانها •• اننى غير متأكد من مدى درايتك بحقائق الحياة ، فهناك أسرار تكتم فى حذر عن الاطفال ، وخاصة البنات •• البنات اللاتى يجب أن تصان أذهانهن طاهرة لا تشوبها شائبة ، الى أن يحين أوان تسليم**

الواحدة منهن الى أحضان الرجل الذى يتكفل باسعادها • فهذا الرجل هو الخليق بأن يرفع الستار المسدلة على سر الحياة الجميل •• ولكن الفتيات اذا لم تتح لهن اشارة تكشف شيئا عن هذه الحقيقة ، قد يثرن أحيانا على أبسط الحقائق الحيوانية المستترة وراء أحلامهن • فاذا الاذى الذى يصيب نفوسهن أو أجسادهن يجعلهن يأبين على أزواجهن ما يخوله اياهم القانون كحق مطلق • لست أقوى على أن أنبئك بشىء أكثر من هذا يا حبيبتى ، ولكن •• لا تنسى أنك ملك مطلق لزوجك ! »

ترى ما الذى كانت تعرفه الساذجة بالضبط ؟ •• وأخذت «جان» ترتجف تحت وطأة كآبة محيرة ،مؤلمة ،وفى أعماقها هاجس داخلى مبهم •• وما لبثا أن عادا الى الدار ، فاستقبلتهما لدى باب قاعة الجلوس مفاجأة : كانت «مدام أدليد» تنتحب على صدر « جوليان » ، فى دموع غزيرة كأنما تدفعها « مضخة » فتنساب من أنفها ، وفمها ، وعينيها فى آن واحد ! •• وكان الشاب الحائر المرتبك ، يحتضن الام التى ألقت بنفسها بين ذراعيه تتوسل اليه أن يرعى فى اعزاز ابنتها الحبيبة ، الغالية، المعبودة ! •• وأسرع البارون نحوهما قائلا : « لا •• لا داعى لمثل هذا الموقف من فضلك •• لا ينبغى الانسياق للضعف •• أتوسل اليك ! » •• وقاد زوجته فأسلمها الى مقعد وثير ، وهى تجفف دموعها • ثم تحول الى جان قائلا : « تعالى يا صغيرتى قبلى أمك بسرعة ، واذهبى الى سريرك »

وقبلت «جان» أبويها فى عجلة ، ثم سارعت بالفرار وقد أوشكت أن تبكى هى الاخرى •• وكانت الخالة «ليزون»قدأوت الى غرفتها • وبقى البارون وزوجته وحيدين مع جوليان ، وقد غشيهم وجوم عز عليهم خلاله أن يفكروا فى شىء يقال • وكان الرجلان يقفان وعينا كل منهما تتحاشى عينى الآخر •• ومدام أدليد لائذة بمقعدها وفى حلقها بقايا الغصة والعبرات ••

واشتد الوجوم حتى غدا لا يحتمل ، ومن ثم شرع البارون فى الحديث عن الرحلة التى سيقوم بهاالعروسان بعد بضعة أيام ..

* * *

● **أما** «جان» ، فما أن صارت فى مخـــدعها حتى تركت «روزالى» تنضو عنها ثيابها وهى تبكى مدرارا ، حتى أن يديها كانتا تبحثان عن مشابك الثياب على غير هدى ، من فرط ما حجبت الدموع بصرها !.. كانت تبدو أكثر تأثرا من مولاتها . بيد أن «جان» لم تحفل كثيرا بدموع الخادم ،اذ لاح لها أنها ولجت عالما آخر .. انتقلت الى دنيا مغايرة ، وانفصلت عن كل ما اعتادت أن تعتز به . وبدا لها أن كل شىء فى حياتها ، وفى أفكارها ، قد انقلب .. **بل لقد خامرتها فجأة هذه الفكرة : «أتراها أحبت زوجها ؟» .. لقد بدا لها فجأة كما لو كان غريبا لم تكد تعرفه..انها لم تكن ـ قبل ثلاثة أشهر ـ لتدرى أنه على قيد الوجود ، ومع ذلك فها هى ذى قد أصبحت زوجة له ، لماذا كان هذا ؟ .. لماذا تردت فى الزواج وكأنها تهوى الى ثغرة فاغرة تحت قدميها ؟**

واندست فى سريرها عندما أصبحت فى رداء النوم ، فاذا الاغطية الباردة تثير فى جلدها قشعريرة ضاعفت من شعورها بالبرد ، والوحدة ، والاسى الذى جثم على نفسها طيلة الساعتين الاخيرتين ! .. وأسرعت «روزالى» تغادر الغرفة وهى لا تزال تنتحب ، وبقيت «جان» تترقب ذلك الشىء الذى أشار أبوها اليه فى عبارات مرتبكة .. ذلك الشىء الغامض الذى سيزيح الستار عن سر الحب الاكبر !

وفجأة ، سمعت ثلاث طرقات خفيفة على بابها ، فلم تجب ، بل راحت ترتجف فى قسوة . وعادت الطـرقات ، ثم فتح الباب ، فأخفت رأسها تحت الاغطية وكأنما ولج الغرفة سارق! .. وانبعث على أرض الحجرة وقع قدمين تسيران بخفة ، ثم

تلمس شخص ما سريرها بغتة ، فأجفلت وندت عنها صرخة خافتة ٠٠ ورفعت الاغطية عن رأسها ، فرأت «جوليان» يقف أمامها ، مبتسما وهو ينظر اليها٠٠وقالت : «لشد ماأخفتنى !» فأجاب : « اذن ، لم تكونى تترقبيننى ! »

ولم تجب ٠٠ كان هو فى رداء السهرة ، وقد طفح وجهه بالهناء الذى يواتى أى زوج ٠٠ فغشيها هى خجل من أن تكون فى السرير فى حضور هذا الرجل الذى بدا أنيقا فى ثيابه !٠٠ ولم يدريا ماذا يقولان ، أو ماذا يفعلان ، بل ان كلا منهما لم يجسر على أن ينظر الى الآخر فى هذه اللحظة الخطيرة ، الحاسمة، التى تتوقف عليها سعادة حياتهما المرتبطة المشتركة طيلة أيامهما !

ولعل الشاب أحس احساسا مبهما بما فى هذه المعركة من خطر ، وما ينبغى أن يعمد اليه من تمالك لنفسه ، ومن حيلة وحنان ، كى لا يجرح شيئا من حياء ، وخفر ، ورقة الروح العذراء التى كانت تتغذى من الاحلام ٠ وما لبث أن تناول يدها فى رقة بالغة وقبلها ، ثم ركع الى جوار سريرها ، وكأنه أمام هيكل قدسى ، وتمتم بصوت فى لطف النسيم: «هلاأحببتنى؟» ٠٠ فتملكتها طمأنينة مفاجئة ، ورفعت رأسها عن الوسادة ، وابتسمت قائلة : « بل اننى أحبك فعلا يا عزيزى »

فوضع أصابعها الرقيقة بين شفتيه ، وقال فى صـــوت مختنق : « هلا برهنت لى على أنك تحبيننى ؟ »

قالت وقد عاد يحيرها أنها لم تكن تفقه تماما ما كانت تقول ، وانما كانت تتذكر كلمات أبيها : « اننى لك ٠٠ ملكك ! » ٠٠ فغمر رسغها بقبلات حارة ، ونهض فى بطء ، فاقترب من وجهها الذى شرعت تخبئه ثانية ٠٠ وفجأة ، دس احدى ذراعيه بين الاغطية واحتوى جسد زوجته ، بينما كانت ذراعه الاخرى تحت الوسادة ترفع رأسها ٠٠ وتساءل فى رقة : « اذن ، فستوسعين لى مكانا بجوارك ؟ »

فقالت متلعثمة وقد تملك نفسها خوف غريزى : « أواه !٠٠ ليس بعد ! ٠٠ أرجوك ! »

فعبس قليلا ، وتساءل فى شىء من الحدة : « ولماذا الارجاء لأمر لا بد منه ؟ » ٠٠ وأغضبها منه هذا القول ، ولكنها أجابت فى انصياع وقد استردت جأشها : « اننى ملك يديك » ٠٠ ومن ثم ، اختفى الزوج فجأة فى غرفة الزينـــة ٠٠ وسمعت حركاته فى وضوح ، تخالط حفيف ملابس تخلع ، ورنين قطع النقود التى فى جيبه ، وارتطام حذاءيه بالارض ٠٠

وفجأة عبر الحجرة فى ثيابه الداخلية وجوربيه ، وسار بسرعة فوضع ساعته على رف المدفأة ، ثم عاد يجرى الى الغرفة الصغيرة المجاورة ، فراح يتنقل فيها برهة ٠٠ وانقلبت «جان» على جانبها بسرعة ، وأغمضت عينيها ٠٠ وعندما شعرت به عند السرير ثانية ، أوشكت أن تقفز كمالو كانت تلوذبالارض، ولكنها سرعان ما أحست بساق باردة ، طرية ، تندس ملتصقة بساقها ٠٠ وانكمشت فى السرير وقد غطت وجهها براحتيها ، خائفة ، توشك أن تصرخ فى جزع !

واذ ذاك ، احتواها بين ذراعيه ، مع أنها كانت توليه ظهرها وراح يقبل فى نهم وشوق عنقها ، ووشى قلنسوتها الصغيرة ، وحافة قميص نومها ٠٠ أما هى فلم تتحرك ، بل شل حراكها قلق رهيب ، وقد أحست بيده القوية تقبض على ثديها ٠٠ وشهقت وقد استولى عليها الخوف من لمساته ، فودت أكثر من ذى قبل أن تفر ، وأن تجرى فى الدار ، وأن تحبس نفسها فى مكان بعيد عن هذا الرجل ! ٠٠ ثم لم يعد يتحـــرك ٠٠ وشعرت بدفئه يسرى فى ظهرها ٠٠ واذ ذاك هدأ خوفها ، وفكرت فجأة فى أنه لم يعد لها سوى أن تتحول نحوه وتحتضنه

لكنه بدا بغتة نافد الصبر ، وقال بصوت حزين : « اذن فانت تابين أن تصبحى زوجتى الصغيرة ؟ »

فغمغمت خلال أصابعها التى سدت فمها : « أولست الآن كذلك ؟ »

قال فى شىء من الضيق : « لا يا عزيزتى ٠٠ هيا ، لاتعبثى بى »

وتأثرت لما بدا فى صوته من استياء ، فتحولت اليه فجأة تسأله أن يصفح ، واذا به يضمها اليه فى وجد جنونى ، كأنما كان فى جوع اليها ، وغمر وجهها ونحرها بقبلات هوجاء ، سريعة ، لاذعة ، وهو يكاد يخنقها بعناقه ٠ وكانت قد فتحت يديها ، وظلت جامدة ، مشدودة الاعصاب تحت حركاته ، لا تدرى ما الذى كانت تفعله ، أو ما الذى كان يأتيـــه ٠٠ ثم أحست بألم حاد ، مباغت ، فبدأت تتأوه ، متلوية بين ذراعيه وهو يطبقهما عليها !

ولم تعد تذكر ما حدث بعد ذلك ، اذ فقدت وعيها ٠٠ وبدا لها أنه انما راح يغمر شفتيها بفيض من قبلات سريعة ،شاكرة ٠٠ ثم تحدث اليها ، وردت عليه ٠٠ وما لبث أن اعاد الكرة مرارا ، وهى تقاومه فى فزع ، وتحس أثناء الصراع على صدرها بذلك الشعر الكثيف الذى أحست به من قبل على ساقها ، فانكمشت مأخوذة ٠٠ وأخيرا ، انهكته محاولة استمالتها دون جدوى ، فاستلقى على ظهره بلا حراك ٠٠

واذ ذاك بدأت تفكر ٠٠ قالت لنفسها فى قنوط ، وقد خاب رجاؤها فى النشوة التى كانت تتخيلها فى أحلامها على صورة أخرى ، وفى الامل الذى طالما هدهدته فاذا به يتحطم ٠٠ وفى الهناءة التى ولت : « اذن ، فهذا ما قصد اليه بقوله أن أصبح زوجته !؟ »

وظلت فترة طويلة على هذه الحال ، قلقة ، يهيم بصرها خلال اللوحات المنسوجة على السجاد ، التى كانت تزين الحائط ، ممثلة أسطورة الحب القديمة ٠٠ ولما ظل «جوليان» بدون حديث

ولا حراك ، شرعت تستدير نحوه رويدا ، فتبينت أنه يغط فى النوم ! ٠٠ نام وفمه منفرج بعض الشىء ، وقد ساد الهدوء طلعته ٠٠ **نائم ! ٠٠ لم تكد تصدق ! ٠٠ وآلم هـذا النوم كبرياءها وأحنقها أكثر مما فعلته حيوانيته فى ليلتها الاولى ! ٠٠ أويجد سبيلا الى النوم فى مثل هذه الليلة ؟ ٠٠ اذن فلم يكن ما جرى بينهما يعنى لديه أكثر مما حدث ؟ ٠٠ أواه ! ٠٠ لقد كانت تؤثر أن تصفع ٠٠ أن تعامل فى قسوة من جديد ٠٠ أن يهشم «جوليان» عظامها بعناقه البشع حتى تفقد وعيها !٠٠ وظلت ساكنة ، معتمدة على أحد مرفقيها ، منحنية نحـوه ، تنصت الى الزفير الواهن الذى كان ينبعث من بين شفتى الزوج النائم ، والذى كان يتحول أحيانا الى شىء يشبه الغطيط ٠٠**

وطلع الفجر ، معتما فى البداية ، ثم واضحا ، ورديا ، ثم وضاء مشرقا ٠٠ وفتح «جوليان» عينيه ، وتثاءب وتمطى ، ثم نظر الى زوجته ، وابتسم متسائلا : « هل نعمت بنوم طيب يا حبيبتى ؟ »

ولاحظت أنه أسقط الكلفة فخاطبها بضمير مفرد ٠ ولكنها أجابته فى كلفة رسمية : « آه ، أجل ٠٠ وأنتم ؟ »

قال : « أنا ٠٠ آه ؟ ٠٠ كان نومى طيبا جدا » ، ثم استدار اليها فقبلها ، وشرع يتحدث بهدوء ٠٠ يرسم خططا لحياتهما ، فى ميل الى الاقتصاد ٠٠ وأدهش «جان» ان تكررت كلمة «الاقتصاد» كثيرا ! ٠٠ وأصغت اليه دون أن تفقه تماما معانى الكلمات ٠٠ كانت تنظر اليه ، وهى تفكر فى ألف شىء وشىء أخذ يمر على صفحة ذهنها ٠٠

ودقت الساعة مؤذنة بالثامنة ، فقال : « هيا ٠٠ يجب أن ننهض ، فمن السخف أن نبقى فى الفراش الى ساعة متأخرة » ٠٠ وبادر الى النهوض ٠ وما أن فرغ من ارتداء ثيابه ، حتى أخذ يساعد زوجته فى كافة دقائق زينتها ، بمرح ، دون أن يدع سبيلا لاستدعاء «روزالى» ٠٠

وفيما كانا يبارحان المخدع ، استوقفها قائلا : « أحسبك تعرفين أنه يخلق بنا أن نتخاطب فيما بيننا بضمير المفرد ، دون ما كلفة .. ولكننى أوثر أن نرجىء ذلك قليلا أمام والديك ، فلسوف يبدو الامر طبيعيا حين نعود من رحلة العرس .. »

ولم تظهر العروس الا عندما حان موعد الافطار .. ثم بدأ اليوم يسير فى مجراه العادى ، وكأن شيئا جديدا لم يحدث.. كل ما هنالك أن البيت أصبح يضم رجلا آخر .. وحسب !

الفصل الخامس

◆ وبعد أربعة أيام وصلت العربة التى أعدت كى تقل العروسين الى مرسيليا . وكانت «جان» بعد انفعالات الليلة الاولى قد اعتادت علاقاتها بجوليان ، وقبلاته ، وعناقه الرقيق ، وان كان اشمئزازها من الصلات التى كانت تتجاوز ذلك لم يخف . على انهـا كانت ترى فى زوجهـا شابا أنيقا مليحا ، فأحبته ، وخالت انها كانت سعيدة طروبا

وكان وداع الاسرة للمسافرين قصيراً ، لا يشوبه حزن ، اذ لم يبد التأثر على أحد ، اللهم الا البأرونة ، التى وضعت فى

يد ابنتها كيسا ثقيلا ـ والعربة توشك أن تتحرك ـ وقالت لها : « هذا مبلغ لنفقاتك الخاصة كعروس » ، فدست « جان » الكيس فى جيبها ٠٠ وانطلق الجوادان بالعربة ٠٠

وفى ذلك المساء ، سألها جوليان : « كم منحتك أمك فى هذا الكيس ؟ » ٠ وكانت قد نسيته ، فبادرت تفرغه فى حجرها ، واذا بفيض من الذهب يتدفق منه ٠٠ كان فيه ألفا فرنك ٠ وصفقت قائلة وهى تعيد النقود الى الكيس : « لسوف أرضى كل النزوات بهذا المبلغ »

ووصلا الى مرسيليا بعد رحلة استغرقت اسبوعا ، فى جو قائظ ، فظيع ٠ وفى اليوم التالى ، حملتهما السفينة الصغيرة « روا لوى » ٠ وكانت ستمر بأجاكسيو ، ميناء كورسيكا ، فى طريقها الى (نابولى)ـواتجهت بهماشطرالجزيرة٠٠كورسيكا!٠٠ بلاد العصابات المسلحة « الماكى » ، وقطاع الطريق ! ٠٠ بلاد الجبال ! ٠٠ مسقط رأس نابليون ! ٠٠ وخيل لجان انها خلفت عالم الحقيقة والواقع ، لتلج حلما عذبا ، وهىفى أتم اليقظة !٠٠ ووقفت وزوجها جنبا الى جنب على سطح السفينة يشاهدان تلال (بروفانس) الجيرية وهى تتراجع أو تجاوزها السفينة فى سيرها ٠٠ وكان البحر ساكنا ، عميق الزرقة ، يبدو كأنما جمد وتيبس تحت ضوء الشمس الوهاج الذى امتد الى ما لا نهاية تحت السماء الباهتة الزرقة

وقالت جان : « هل تذكر رحلتنا فى مركب الاب لاستيك ؟ » ٠٠ وبدلا من أن يجيبها ، طبع قبلة خاطفة على اذنها ٠٠

وأخذت دواليب السفينة تضرب الماء ، فتوقظه من ركوده الثقيل ، وتخلف وراء السفينة ـ الى أقصى مرامى البصر ـ خطا طويلا من الزبد الذى كان يفور كزبد « الشمبانيا » ٠٠ وفجأة ، قفزت من الماء على بعد أمتار من مقدمة السفينة ، سمكة هائلة

من نوع « الدرفيل » ، ثم غاصت ثانية برأسها ، واختفت ٠٠ فأطلقت « جان » صرخة وقد أجفلت مذعورة ، وارتمت على صدر جوليان ٠٠ ثم طفقت تضحك لاجفالها ، وحملقت فى انتباه لترى ما اذا كانت السمكة ستعاود الظهور ٠٠ وان هى الا ثوان قلائل حتى قفزت ثانية ، كلعبة آلية ، ثم غاصت لتعاود القفز من جديد ٠٠ وتبعتها سمكة أخرى ، فثالثة ، حتى صار عددها ست سمكات ، أخذت تتراقص حول السفينة الثقيلة ، كأنها موكب يحف بهذه « الاخت الكبرى » ، هذه السمكة الخشبية ذات الزعانف الحديدية !٠٠ وكانت السمكات تسير الى يسار السفينة ، ثم تتحول الى يمينها ، جماعة ثم وحدانا ، وكأنها تمثل مشهدا فى مسرحية ٠٠ ثم تقفز الى الهواء فى حركة تشبه القوس ، وتعود فتغوص فى الماء واحدة بعد أخرى ٠٠

وصفقت « جان » ابتهاجا لكل حركة من حركات هذه السابحات البارعات ، وقلبها يخفق مع الحركات فى سرور صبيانى ٠٠ وفجأة ، غاصت الاسماك ٠٠ وظهرت مرة أو اثنتين ، على بعد كبير ، متجهة نحو عرض البحر ، ثم اختفت نهائيا ، فأحست « جان » ــ لبضع ثوان ــ بأسى لرحيلها ٠٠

★ ★ ★

• وأقبل المساء ، ساكنا ، زاهيا ، مفعما بالنور ، وبالسكينة الهانئة ٠٠ ولم تتخلل الهواء أو تحرك الماء نسمة واحدة ٠ وما لبث الهدوء الساجى ــ الذى ألم بالمحيط والسماء ــ ان فرض نفسه على النفوس المستكينة التى لم تعد تثيرها بدورها أية رعشة أو رعدة ٠٠ **وانحدرت الشمس الكبيرة فى رفق نحو (أفريقيا) القابعة وراء الافق ٠٠ أفريقيا ، البلاد الحارة التى خيل اليهما انهما يكادان يشمان عبيرها ٠٠ وما لبثت أن داعبت وجهيهما ــ عندما اختفت الشمس ــ نامة**

من هواء لم تبلغ بعد مبلغ النسيم ‥ ولم تقم فى نفسيهما أية رغبة فى الايواء الى مخدعهما ، اذ كان يعبق بكافة الروائح المجوجة - المتصاعدة من البضائع المشحونة على السفينة - ومن ثم استلقيا على السطح ، جنبا الى جنب ، ملتفين فى عباءتيهما ‥ واستسلم جوليان للنوم فورا ، أما « جانِ » فظلت راقدة مفتوحة العينين ، يهيج مشاعرها ما كانت تخبئه الرحلة من أمور مجهولة ، فى طيات الغيب ‥ وأخذت حركة آلات السفينة الرتيبة المتواترة تهدهد أعصابها ، وهى تتطلع فوقها الى الكواكب المتلألئة الوميض ، السابحة فى سماء الجنوب الصحوة ‥

وأغفت قبيل الصباح ، لكنها لم تلبث أن استيقظت على جلبة وأصوات ، فاذا الملاحون ينظفون السفينة وهم يغنون ‥ وهزت زوجها الذى كان مستغرقا فى النوم ، ثم نهضا ‥ وراحت تعب فى انتشاء عبير الضباب الممتزج بملوحة الماء ، فسرى فى كيانها حتى أطراف أناملها ‥ وكان البحر ممتدا فى كل اتجاه ، بيد ان شيئا أسمر بدا من ناحية مقدمة السفينة ، غير واضح المعالم فى أطواء الفجر الوليد ، كأنه مجموعة من سحب غريبة ، متعرجة الاطراف مدببتها ، تطفو فوق الامواج ‥ وما لبث هذا الشىء ان ازداد وضوحا ، وأخذت معالمه تزداد ظهورا تحت السماء المشرقة ، فاذا به صف طويل من جبال متعرجة ، غريبة الشكل ‥ تلك كانت (كورسيكا) تلفها غلالة من الضباب ‥ ثم أشرقت الشمس خلفها ، فأحاطت قمم الجبال بظلال سوداء ‥ وما لبثت القمم جميعا أن حظيت بالنور ، بينما ظلت بقية الجزيرة مستكينة للضباب

وظهر الربان على سطح السفينة ، وكان رجلا ضئيل الجسم ، قميئا ، خلعت عليه الشمس سمرة ، وبدا جاف العود ، متقلصا ،

كأنما قددته الرياح الملحة العاتية !٠٠ وقال لجان بصوت أكسبته اللهجة الآمرة منذ ثلاثين سنة خشونة ، وأثقله الصياح بالاوامر خلال الانواء : « هل تشمينها ؟ »

وكانت ثمة رائحة غريبة فعلا ، عبير غريب نفاذ ، يتصاعد من نباتات وأحراش برية ٠٠ واستطرد الربان قائلا : « هذا عبير كورسيكا يا سيدتى ٠٠ انه عطر انوثتها ، وانى لأستطيع أن أتشممه على بعد خمسة أميال ، ولو غبت عنها عشرين عاما ٠٠ فانى انتمى اليها ٠٠ انهم يقولون ان الرجل الذى أبجله لا يفتأ يتحدث فى « سانت هيلانة » عن عبير مسقط رأسه ٠٠ انه من أسرتى »

ورفع الربان قبعته محييا (كورسيكا) ومحييا فى الوقت ذاته ـ عبر المحيط ـ الامبراطور العظيم الاسير « نابليون » ، الذى ينتمى الى اسرته ! وبلغ التأثر بجان ان كادت تبكى ٠ وما لبث أن بسط أحد الملاحين ذراعه نحو الافق قائلا : « هذه هى « القمم الدموية » (سانجينيز) ٠ وأحاط « جوليان » خصر زوجته بذراعه ، ووقفا يسرحان بصريهما نحو النقطة التى أشار اليها الملاح ، فتبينا فى النهاية صخورا هرمية الشكل ، لم تلبث السفينة أن دارت حولها ، لتلج خليجا واسعا ، هادئا ، محوطا بعدد من القمم الشاهقة التى بدت سفوحها مكسوة بالطحالب ٠٠ فأشار الربان قائلا : « هذه جبال ماكى »

وأخذت حلقة الجبال تزداد اقترابا ، وهى تحدق بالسفينة ـ من خلفها ـ وقد راحت هذه تمخر فى هوائه ، فى بحيرة لازوردية شفافة ـ حتى لقد كان قاعها يبين خلال الماء ! ـ وفجأة ، لاحت مدينة يسودها البياض ، فى نهاية الخليج ، الى جانب الامواج التى كانت تلثم أقدام الجبال ٠ وكانت ترسو فى الميناء بضعة قوارب ايطالية ، وأقبلت أربعة أو خمسة زوارق

تحوم حول « روا لوى » لتقل الركاب الى الشاطىء • وسأل جوليان زوجته فى صوت خفيض وهو يجمع متاعهما : « ألا ترين ان عشرين « سو » كافية كمنحة لخادم السفينة ؟ » •• وكان قد ظل أسبوعا يردد هذا السؤال ، فيثير غيظها فى كل مرة • لذلك أجابته فى شىء من التذمر : « خليق بالمرء ان يجزل العطاء اذا كان يخشى أن يكون مقلا ! »

كان جوليان دائم الخلاف مع مديرى الفندق وخدمه ، ومع الحوزية والباعة ، وكان اذا حصل على تخفيض بفضل اللجاجة فى المساومة ، يفرك يديه قائلا لجان : « لست أحب أن أدعهم يسرقوننى ! » •• فصارت « جان » ترتجف حين تقدم اليهما قوائم الحساب ، لوثوقها مقدما من الملاحظات التى سوف يبديها عند كل بند •• وكانت تشعر من ذلك بشىء من الضعة ، فان مساومات زوجها ، ونظرات الزراية التى يشيعه الخدم بها وهم ممسكون بعطائه على أطراف أناملهم ، كانت تبعث دماء الخجل الى وجهها ، تغمره حتى منابت الشعر •• بل ان جوليان لم يحجم حتى عن مساومة الملاح الذى أقلهما الى الشاطى !

* * *

◆ **وكانت** أول شجرة رأياها فى الجزيرة : نخلة ! •• وقصدا الى فندق كبير ، خال ، فى ركن من الميدان الكبير ، فتناولا افطارهما ، حتى اذا فرغا ، وهمت « جان بالنهوض للتجوال فى المدينة ، احتضنها « جوليان » وغمغم فى اذنها فى وجد : « ألا ترين أن نضطجع قليلا يا حبيبتى ؟ »

وقالت مشدوهة : « نأوى الى السرير ؟ •• ولكننى لست متعبة ؟ »

فعانقها قائلا : « اننى مشوق اليك •• ألا تدركين ؟ •• لقد مر يومان •• ! »

قالت متلعثمة فى حياء : « اواه ! الآن ؟ •• ماذا يظن الناس بنا ؟ كيف ننشد مخدعا فى وضح النهار ؟ •• اواه يا جوليان ! أرجوك ! »

فقاطعها قائلا : « لست اعبأ بما قد يقوله رجال الفندق أو يظنونه ؟ •• سترين انهم لا يحفلون » •• ودق الجرس ، فلم تنطق بحرف ، بل غضت بصرها ، وان سرى التمرد فى روحها وجسمها ازاء هذا الاشتهاء الذى لا يكف زوجها عن ابدائه ، والذى لا تنصاع هى له الا فى تقزز ، ولا ترتضيه الا فى استهجان وشعور بالهوان ، اذ لم تكن ترى فيه سوى تصرف حيوانى ، مهين •• بل فجور فاحش فى الحقيقة !•• ولم تكن قد راضت نفسها على الاستجابة لعواطف زوجها المشبوبة ، أما هو فكان يعاملها كما لو كانت تشاطره شهواته ••

واذ جاء الخادم ، سأله « جوليان » ان يقودهما الى غرفتهما • ولم يفقه الرجل الذى كان الشعر يكسو وجهه ، كأى كورسيكى ، ولا ينحسر الا عن عينيه •• فقال : « ان الغرفة سوف تعد فى المساء » •• لكن جوليان قال نافد الصبر : « لا ، بل يجب أن تعد الآن ، فورا •• اننا متعبان من السفر ، وفى حاجة الى الراحة •• »

واذ ذاك ، شاعت فى محيا الخادم ابتسامة ، فودت « جان » لو تفر من أمامه ! •• وعندما هبطا بعد ساعة ، لم تجسر على أن تواجه من صادفت من الناس ، وقد وقر فى نفسها انهم يضحكون ويتهامسون من وراء ظهرها ! **وغاظها من « جوليان » انه لم يكن يفهم هذا ، ولم يكن على شىء من هذه الالوان البسيطة من الحياء ، ومن الكياسة الغريزية ! •• وأحست بحاجز يقوم بينهما ، وقد تبينت للمرة الاولى انه لا يمكن لأى شخص أن ينفذ الى اغوار روح قرينه •• وانه قد يقترن الزوجان ، ولكن لا يشترط قط أن يمتزجا ، اذ ان الفطرة**

الخلقية لدى كل منا تبقى مع شخصيته قائمة على حدة ، طيلة الحياة !

* * *

وبقيا ثلاثة أيام فى تلك المدينة الصغيرة المختبئة فى أقصى خليجها الازرق ، الساخنة كالفرن خلف ستار الجبـال التى لا تدع الرياح الطلقـة تصل اليها . ثم أعدا العـدة للطواف ببقية أنحاء الجزيرة . ولكى يتجنبا متاعب الطرق العسيرة التى قد تصادفهما ، قررا أن يستأجرا جوادين كورسيكيين صغيرين، متقدى النشاط ، نحيلى البنية ، لا يعرف التعب منفذا اليهما .. ثم انطلقا ذات يوم عند مطلع النهار ، يرافقهما دليل امتطى بغلة ، وحمل معه المؤونة اللازمة ـ اذ لم تكن فى تلك البلاد الجبلية حانات أو فنادق تتخلل طرق المسافرين ..

وامتد الطريق محاذيا حافة البوغاز فى البداية ، ثم أوغل فى واد ضيق ، متجها الى القمم الشاهقة . وكانوا يعبرون فى بعض الاحيان انهارا تكاد تكون مجاريها جافة .. أو يصادفون جدولا لا يزال ينساب تحت الاحجار ، كثعبان يتسلل ، محدثا خريرا خافتا ..

وبدت البطاح غير المعبدة ، عارية من الخضرة .. فقد كانت الاعشاب التى تكسو سفوح الجبال ، ذابلة ، صفراء فى هذا الفصل من العـام . وكانوا يصادفون أحيـانا شخصا من أهل الجبال يسير على قدميه ، أو يمتطى مهرا ، أو يمشى الى جوار حمار لا يجاوز الكلب حجما !.. وكانوا جميعا يحملون على اكتافهم بنادق مشحونة بالطلقات ، من نوع قديم ، صدىء ، ولكنه كان يستحيل فى ايديهم قويا !

ولاح أن الأريج النفاذ المتصاعد من النباتات المتضوعة التى تكسو الجزيرة ، كان يملأ الهواء ، بينما مضت الطريق صعدا خلال مسالك الجبال . وكانت ذرى هذه الجبال الجرانيتية

الوردية أو الزرقاء تضفى ظلالا سحرية على الفضاء الشاسع ، وعلى السفوح المنخفضة ٠٠ أما غابات الكستناء فكانت تبدو فى خضرة الاحراش اليانعة ٠٠ وكان تماوج الارض الجبلية بين الارتفاع والانخفاض ، يبدو هائلا ، رائعا ٠٠

وكان الدليل المرافق لهم يشير فى بعض الاحيان الى المرتفعات الشديدة الانحدار ، ويذكر أسماءها ، فكانت «جان» و « جوليان » ينظران ، فلا يريان شيئا ، ثم يتبينان فى النهاية مكانا داكن اللون ، أشبه بكتلة من الصخر انحدرت هاوية من احدى القمم ٠٠ واذا بها قرية صغيرة ، أقرب الى الضيعة ، معلقة على حافة جرف ـ كأنها عش طيور ـ لاتكاد تبين خلال الجبل العملاق ٠٠

وكان السير المتباطىء يبعث السأم فى نفس « جان » ، فتقول : « تعال نركض قليلا » ، ثم تلكز جوادها ٠٠ فاذا لم تسمع وقع حوافز جواد زوجها على مقربة ، التفتت ، ثم شرعت تضحك من اعماق قلبها اذ تراه يتقدم فى حذر . ، شاحب الوجه ، ممسكا بنعرة جواده ، مهتزا فوقه بشكل عجيب ٠٠ (وكان جماله ، ووجهه ـ الذى خلق ليكون وجه «فارس مليح» ـ يزيدان هذا الاحجام والخوف اثارة للسخرية والضحك!) ٠٠ ثم يشرع الاثنان بعد ذلك فى ركض خفيف ، رفيق ٠٠

وأصبح الطريق ممتدا بين حرشين لا نهاية لهما ، يغطيان سفحين كاملين ، كأنهما وشاحان ٠٠ وكانت تلك منطقة « الماكى » المنيعة ، المؤلفة من أشجار البلوط ، والدفران ، والقطلب ، والصمغ ، وغيرها من نباتات كثيفة كانت تكسو جوانب الجبال بنسيج متشابك متداخل كصوف الغنم ٠٠

وشعرا بالجوع ، فلحق بهما الدليل ، وقادهما الى جدول من تلك الجداول الخلابة التى يكثر وجودها فى البلاد الجبلية ، وكأنها خيط رفيع من مياه تنبثق من عين فى الصخور ،

وتنساب فى قناة قد تتحكم فى توجيهها ورقة من أشـــجار الكبتناء وضعها عابر سبيل ٠٠ وأحست « جان » بغبطة لم تكد معها تكبح نفسها عن اطلاق صيحات الفرح ٠٠ وما لبثوا أن عاودوا الرحيل هابطين ، ملتفين حول بوغاز « ساجون »

وحوالى المساء ، اجتازوا قرية « كرجيز » اليونانية التى أنشأتها فى سالف الازمان جالية من المهاجرين الذين أقصوا عن وطنهم ٠ وكانت تحيط بعين ماء ثلة من الحسان ، فارعات القوام ، ذوات ظهور مستقيمة ، وأبدان جميلة ، وأيد طويلة ، وبهاء فذ ٠ وحياهن « جوليان » بقوله : « مساء الخير » ، فأجبن فى أصوات موسيقية ، بلغة وطنهن الذى هجرنه ٠٠

* * *

◆ **واذ** بلغ الركب (بيانا) ، اضطر المســافرون الى ان ينشدوا المأوى عند أهلها ، كما كانت العادة فى المناطق المنعزلة فى غابر الازمان ٠٠ واهتزت « جان » طربا وهم يرتقبون أن يفتح لهم باب الدار التى طرقوها ٠٠ آه ! ٠٠ هذا هو الترحال حقا !٠٠ الترحال بما فيه من أحداث مجهولة ، وسبل لم يسبق ارتيادها ٠ وكانت الدار لزوجين شابين استقبلاهم كما يستقبل الرهبان ضيوفا بعث بهم الله اليهم ٠ ونام العروسان على حشية من التبن ، فى دار يعيث السوس فى أخشابها ، فكانت تتخللها الثقوب ، وينتشر فيها السوس القارض ، ومن ثم كانت تعج بحياة من لون خاص ، فريد ٠٠

واستأنفوا الرحيل قبيل مطلع الشمس ، لكنهم سرعان ما توقفوا امام غابة ٠٠ غابة حقيقية من الجرانيت الأرجوانى٠ كانت من تلك المجموعات من الصخور والقمم والأبراج ، التى صاغها الزمن ، والريح ، ورشاش ماء البحر ، فى شكل عجيب !

وبدت تلك الصخور على ارتفاع ثلاثمائة متر ، باشكالها الرفيعة ، الملتفة ، المتسقة ـ أو المعوجة والمتعرجة ـ ومايحوطها من جو خيالى غير مألوف ٠٠ بدت كأنها أشجار ، ونباتات ، وحيوانات ، وهياكل ، وآدميون ، ورهبان فى أزيائهم الخاصة ، وشياطين ذوو قرون ، وطيور هائلة ٠٠ مجموعة من أشكال رهيبة ، كأنها عفاريت فى كابوس مما يواتى النائم، قضى عليها بأن تمسخ فتنقلب أحجارا ، ارضاء لنزوة اله من آلهة الاساطير ! ٠٠ وكفت « جان » عن الكلام ، وملأت الرهبة قلبها ، فأمسكت بيد «جوليان» تشد عليها متشبثة ، وغشيتها رغبة طاغية فى أن تتلقى آيات الحب ، أمام كل هذا الجمال الطبيعى ٠٠

واكتشفا فجأة بين هذه الاشكال ، خليجا استكان تماما لاحضان جدار قان من الجرانيت الاحمر ٠٠ وكانت هذه الصخور الارجوانية تنعكس على الماء الازرق ، **فهتفت جان : « أواه !٠٠ ياجوليان ! » ، ثم عزت عليها الكلمات ، وقد استبد بها الاعجاب ، وقفزت الى حلقها غصة ، وانحدرت من عينيها دمعتان ٠٠ فتطلع اليها زوجها مذهولا وسألها : « ماذا جرى ياصغيرتى ؟ »**

فجففت خديها ، وابتسمت ، ثم قالت فى صوت متهدج : « لا شىء ٠٠ انما اهتزت أعصابى ٠٠ لست أدرى ٠٠ لقد أثر فى نفسى المنظر ٠٠ لقد بلغت من السعادة حدا يجعل أتفه الاشياء يثير الشجن فى قلبى »

ولم يكن « جوليان » يفقه مظاهر الضعف النسوى هذه ٠٠ والانفعالات التى تغشى هذه المخلوقات المرهفة ، فاذا أشجانهن تحتدم لغير ما شىء ٠٠ ويهزهن التأثر كما لو كن امام كارثة ٠٠ وآذا الشعور المبهم الخفى يثير الفرح الجنونى فى نفوسهن، أو يلقى بهن الى هاوية القنوط !٠٠ ومن ثم بدت الدمعتان

فى نظر جوليان سخفا ، فقال وليس يشغل باله غير الطريق المحفوف بالخطر : « انتبهى الى جوادك ! »

وهبطا الى حافة الخليج خلال درب يكاد اجتيازه يكون مستحيلا ، ثم انحرفا الى اليمين ، ليتسلقا جانب وادى (أوتا) الكالح اللون ، لكن الدرب بدأ أوعر من أن يسلك ، فاقترح « جوليان » أن يقطعاه على أقدامهما ، ولم تكن « جان » ترجو خيرا من ذلك ، فقد طاب لها ان تسير ، وان تكون وحيدة معه بعد العاطفة الجياشة التى تولتها !

وتقدمهما الدليل يقود البغل والجوادين ، فسارا على مهل خلفه ‥ وكان بالجبل شق امتد من قمته حتى قاعدته ، وقد انطوى الدرب فى هذا الشق ، ملتفا حول القاعدة ، بين جدارين شاهقين ، يجرى خلالهما تيار هوائى عات ‥ وكان الهواء قارسا ، والجرانيت أسود ، ومايبدو من السماء الزرقاء ـ على علو شاهق ـ يثير الدهشة ويدعو الى الذهول ‥ وانبعث صوت مباغت ، فأجفلت « جان » ، ورفعت عينيها ، فاذا نسر هائل ينطلق من ثغرة ، ويبسط جناحيه كأنما يود أن يضرب بهما جانبى الشق وهو يصعد فى السماء ‥ حتى اختفى

★ ★ ★

◆ **وتشعب** الشق الذى كان يقســم الجبل ، فاذا الطريق يصعد بين وهدتين ضيقتين متعرجتين ‥ وسارت « جان » فى المقدمة ، خفيفة ، نشيطة ، تدفع الحصى تحت قدميها ، وتميل على كل هاوية تمر بها ، فى جرأة ‥ و « جوليان » يتبعها لاهثا ، مثبتا بصره على الارض خشية أن يصاب بدوار !

وفجأة ، بزغت عليهما الشمس ، فأحسا كأنهما قد خرجا من ظلمة الجحيم . وكانا ظامئين ، فوجدا آثار رطوبة هدتهما بعد اجتياز مجموعة من الصخور الى نبع صغير يجـــرى ماؤه

خلال عصا مجوفة كى ترتوى منه قطعان الماعز ، وقد كسا أرض المكان بساط من الطحالب ·· فركعت « جان » لتشرب من طرف العصا ، وحذا « جوليان » حذوها · **وفيما كانت تنعم ببرودة الماء النمير ، أحاط خصرها بذراعه ، وأراد أن يأخذ مكان فمها عند طرف العصا ، فقاومته ·· وتقاربت شفاههما ، وتلاقت ، ثم افترقت ·· وفى صراعهما ، أخذا يتناوبان التشبث بطرف العصا ، حتى لايفلت منهما ، فكان الماء ينقطع ويسترسل ، متناثرا على وجهيهما ، وعنقيهما ، وثيابهما ، وايديهما ·· ولمعت بين شعرهما قطرات منه كاللؤلؤ ·· وتدفقت القبلات مع الماء ··**

وفجأة ، فاضت من اعماق « جان » مشاعر الحب ، فملأت فمها بالماء الصافى ، حتى انتفخ شدقاها كزجاجتين من جلد ، وأوحت الى جوليان انها تريد أن تسقيه ، فطوح رأسه الى الوراء ، وفتح فمه مبتسما وقد بسط ذراعيه ·· وشرب من هذه النافورة الحية التى ألهبت مشاعره بشهوة جامحة ! ثم مالت عليه « جان » فى وجد غير معهود ، وقلبها يخفق بسرعة ، وقد لانت نظراتها ، وبلل الماء عينيها ·· وغمغمت فى صوت خفيض : « جوليان ·· آننى ·· اننى أحبك » ·· واجتذبته نحوها ··

★ ★ ★

◆ **واستغرقا** فى الوصول الى قمة الجبل مدة طويلة ··· وكانت مبهورة الانفاس ، وقد غلبها التعب ·· وعندما بلغا (افيسا) ، كان المساء قد حل ، فبحثا مع دليلهما عن بيت شخص من أقربائه يدعى « باولى بالابريتى » ·· ووجدوه رجلا طويل القامة ، منحنى الظهر قليلا ، يبدو عليه الطابع الحزين الذى يعترى المصدورين · وقاد الزوجين الى الحجرة التى أفردها لهما ، فاذا بها غرفة كئيبة ، عارية الجدران ، وان بدت

بديعة بالنسبة لبلاد ريفية بعيدة عن الأناقة ٠ وأخذ الرجل يبدى لهما فى لهجة كورسيكية ـ هى خليط من الفرنسية والايطالية ـ سروره بوجودهما ٠٠ واذا امرأة سمراء صغيرة الجسم ، ذات عينين سوداوين كبيرتين قبستا عن الشمس حرارتها ، تقطع عليه حديثه اذ اندفعت الى الحجرة فقبلت « جان » وصافحت « جوليان » ٠٠ ثم قالت وأسنانها تومض ، شأن من تعودت الضحك باستمرار : «يوم سعيد ياسيدتى ٠٠ يوم سعيد ياسيدى ٠٠ أأنتما بخير ؟ »

وحملت قبعتيهما ووشاحيهما فوضعتها كلها جانبا ٠٠ وكانت تعمل بيد واحدة ، بينما حملت اليد الاخرى فى جبيرة ٠٠ ثم تقدمت الجميع الى الخارج قائلة لزوجها : « رافقهما فى جولة ريثما يحين موعد العشاء ٠٠ »

وبادر السيد «بالابريتى» الى الاستجابة ، فتوسط الشابين وصحبهما ليريهما القرية ٠٠ وكان يجر ساقيه ، وينتزع كلماته فى وهن وهو يسعل ويردد كل خمس دقائق : « لم يؤذ رئتى سوى هواء الوادى البارد »

وقادهما الى درب مستكين بين أحضان شجر الكستناء ٠ وما لبث ان توقف قائلا فى لهجة جوفاء : « **هنا قتل ابن خالى « جان رينالدى » على يدى « ماتيولورى » ٠٠ وكنت حاضرا ، وعلى قيد خطوات من « جان » ، حين برز « ماتيو » بالقرب منا ، وصاح : « لا تذهب الى (البيرتاتشى) يا «جان» والا قتلتك ! » ٠٠ فأمسكت بذراع جان وقلت : « لاتذهب ياجان والا نفذ وعيده ! » ٠ وكان محور النزاع فتاة تدعى « باولينا سيناكوبى » تنافسا على حبها ٠٠ فأجاب جان قائلا : «سأذهب ياماتيو ٠٠ انك لن تمنعنى » ، واذ ذاك صوب « ماتيو » بندقية وأطلقها قبل أن أسدد بندقيتى ، فقفز جان عاليا بقدميه كطفل يثب فوق جبل ٠٠ أجل ياسيدى ٠٠ وارتمى**

بكل جسمه على ، فأفلتت منى بندقيتى وتدحرجت الى شجرة الكستناء القائمة هناك ٠٠ وفتح جان فمه عن آخره ، لكنه لم يفه بكلمة ٠٠ ومات ! »

وحملق الشابان فى شاهد الجريمة مبهوتين ، ثم تساءلت « جان » : « والقاتل ؟ »

وانتاب « باولى بالابريتى » سعال طويل ، ثم قال : « لقد لاذ بالجبال ، على أن أخى قتله فى العام التالى ٠٠ هل تعرفان أخى : « فيليبى بالابريتى » ، قاطع الطريق ؟ »

وارتجفت جان متسائلة : « أخوك قاطع طريق ؟ »

فأومضت عينا الكورسيكى زهوا ، وهو ســاكن النفس وقال : « أجل ياسيدتى ، كان ذائع الصيت ٠٠ قضى على ستة من الشرطة ، ثم قتل مع « نيكولاس مورالى » ، عندما حوصرا فى (نيولو) بعد معركة دامت ستة أيام ، وكانا على وشك الموت جوعا »

ثم أضاف قائلا : « هذه حياة بلادنا » ـ باللهجة نفسها التى كان يقول بها : « ان هواء الوادى بارد ! » ـ ومالبثوا أن عادوا ليتناولوا العشاء ، والكورسيكية الضئيلة الجسم تعامل الضيفين كأنها تعرفهما منذ عشرين عاما ٠٠

على أن شعورا من القلق راح يلاحق « جان » : ترى هل تجد مرة أخرى بين ذراعى «جوليان» تلك الفورة الغريبة الجامحة التى انتابت أحاسيسها وهما معا على الأعشاب المحيطة بعين الماء ؟٠٠ وأخذت ترتجف اذ أويا الى غرفتهمـــا خشية أن لاتستمرىء قبلاته ٠٠ بيد انها مالبثت أن اطمأنت ٠٠ ونعما معا بأول ليلة غرام حقيقية !

* * *

◆ **وفى** الصباح التالى لم تك راغبة فى مغادرة هذا البيت المتواضع الذى خيل اليها أن سعادة جديدة قد تفتحت لها بين

جدرانه !٠٠ واجتذبت مضيفتهما النحيلة الى غرفتها ، وبينما كانت تطمئنها الى أنها لن تعرض عليها منحة ، أخذت تلح فى أن تسمح لها بأن ترسل اليها من باريس ـ بعد عودتها ـ هدية تذكارية ، وقر فى ذهنها أن رفضها كفيل بأن يدعوها الى التشاؤم !

وظلت الكورسيكية برهة طويلة ترفض قبول شيء ٠ لكنها انصاعت فى النهاية قائلة : « حسنا ٠٠ لتكن الهدية التى ترسلينها لى اذن ، مسدسا صغيرا ٠٠ صغيرا جدا »

وأجفلت « جان » ، بينما استأنفت الاخرى فى صوت خفيض ، وكأنها تسر فى أذن « جان » بسر تأتمنها عليه : « اننى أريد أن أقتل به أخا زوجى ! » ٠٠ ثم فضت بسرعة الضمادات عن ذراعها المتعطلة ، وهى تبتسم ، وكشفت لها عن بشرة بيضاء بها أثر جرح غائر ـ من خنجر ـ أوشك أن يلتئم مخلفا ندبة ٠٠ وراحت تقول :

ـ لو لم أكن فى قوته لقتلنى ٠٠ ان زوجى لايغار ، لأنه مطمئن الى ، فضلا عن أنه مريض كما تعلمين ، والمرض يهدىء من فورة دمه ٠٠ ثم اننى شريفة ياسيدتى ، ولكن اخا زوجى يصدق كل ما يقال له ، فهو يغار على بدلا من زوجى ، ولا شك فى انه سيعاود محاولة قتلى ، ومن ثم لا بد لى من مسدس لأطمئن واستوثق من اننى سأثأر لنفسى !

ووعدتها « جان » بأن تبعث اليها بالسلاح ، ثم قبلت هذه الصديقة الجديدة فى حنان ، واستأنفت رحلتها ٠ وكان الجزء الباقى من الرحلة أشبه بالحلم ، اذ مضى فى عناق متواصل ، وقبلات مسكرة ٠٠ فلم تر « جان » شيئا من المناظر التى مرا بها ، ولا من الأماكن التى هبطا عندها ٠٠ لم تكن ترى غير « جوليان » !

◆ **وحين** بلغا (باستيا) كان عليهما ان يدفعا الى الدليل أجره ، فأخذ « جوليان » يبحث فى جيوبه ٠٠ فلما لم يجد شيئا ، قال لجان : « أعطينى الالفى فرنك التى أخذتها من أمك ، أحفظها لك مادمت لاتستخدمينها ٠ انها ستكون بمأمن فى حزامى ، كما انها ستمكنني من أن أتفادى عناء استبدال العملة الكبيرة »

فأسلمته الكيس ٠٠ وما لبثا ان بلغا (ليجهورن) ، ثم زارا (فلورنسا) و (جنوا) ومنطقة الكورنيش ٠٠ ووصلا الى (مرسيليا) ذات صباح ، ورياح الشمال الباردة تهب على الميناء ٠ وكان قد انقضى شهران على رحيلهما عن قصر «الحور»، اذ كان اليوم الخامس عشر من شهر أكتوبر ٠ **وبعثت ريح الشمال فى نفس « جان » شجنا ، وهى تتصورها مقبلة من (نورماندى) ـ موطنها ـ وكان « جوليان » قد بدأ يتغير ، فبدا لها ملولا ، قليل الاكتراث ، مما كان يوحى اليها بخوف لم تدر مأتاه !**

وأرجأت عودتهما الى الضيعة أربعة أيام ، وهى عاجزة عن أن تحزم أمرها على مغادرة هذه البلاد المشمسة ٠٠ وقد خيل اليها أنها بلغت فيها أوج السعادة ٠٠ على أنهما مالبثا أن بدءا رحلتهما ، على أن يبتاعا فى باريس كل ما يلزمهما للاقامة فى الضيعة ٠٠ وأخذت « جان » تتصور المتعة التى ستشعر بها اذ تفاجىء أسرتها ببعض الهدايا ، بفضل المنحة التى نالتها من أمها ٠ على أن المسدس الذى وعدت به المرأة الكورسيكية فى (افيسا) كان أول شىء فكرت فى شرائه ٠ فلما كان اليوم التالى لوصولهما الى باريس ، قالت لجوليان : « **هل لك يا عزيزى فى أن ترد لى نقود امى ، لأننى أبغى شراء بعض اشياء ؟** »

فالتفت اليها والاستياء يعلو أساريره وقال : « **كم تريدين منها ؟** »

فأجابت في ارتباك ودهشة : « **مايروق لك** »

ـ سأعطيك مائة فرنك ، فاحرصى على أن لاتبدديها

وحارت فيما ينبغى أن تقول ، وقد غشيها استحياءواستياء، ثم قالت مترددة فى النهاية : « **ولكننى اسلمتك هذه النقود لكى ٠٠** »

فقاطعها قائلا : « **أجل ، ولا شك ٠٠ لا فارق بين أن تكون فى جيبى أو فى جيبك ، بعد أن صار مالنا واحدا ٠٠ اننى لا أضن بها عليك ، بدليل أننى سأعطيك منها مائة فرنك** »

فتناولت منه خمس قطع من فئة العشرين فرنكا ، دون أن تنبس بكلمة ، أو تجرؤ على أن تسأله مزيدا ٠ ولم تشتر من الهدايا التى فكرت فيها سوى المسدس !

٠٠ وبعد أسبوع ، شرعا فى رحلتهما عائدين الى ضيعة « أشجار الحور »

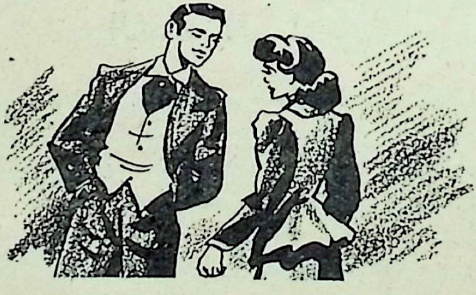

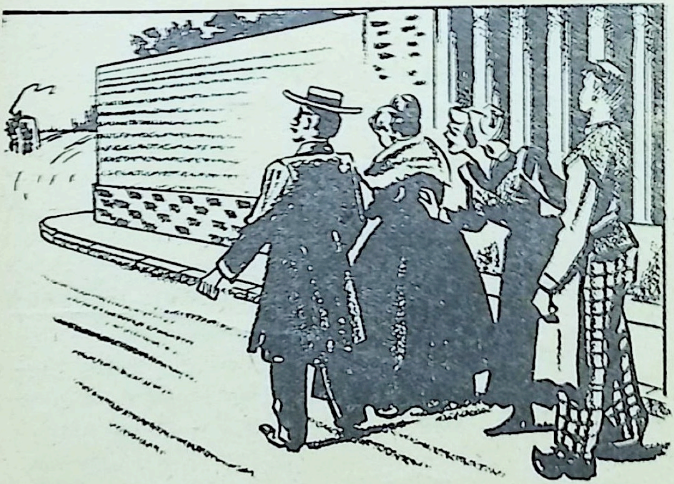

الفصل السادس

• **وقفت** الاسرة والخدم فى انتظارهمـــا أمام البيت . ووصلت العربة، فكان عناق طويل وقبلات .. وبكت البارونة، فتساقطت من عينيها دمعتان بادرت « جان » الى تجفيفهما .. وأخذ ابوها يسير جيئة وذهابا فى انفعال . وبينما كان المتاع ينقل من العربة ، كانت قصة الرحلة تروى فى قاعة الجلوس أمام المدفأة . وكانت الكلمات تنساب دافقة من بين شفتى « جان » ، حتى روت القصة كلها فى نصف ساعة ، اللهم الا بعض تفصيلات قليلة لعلها نسيتها فى غمرة التعجـــل والسرعة ..

ثم انهمكت الشابة فى فض الحزم التى احضرتها و «روزالى» تساعدها متأثرة .. حتى اذا فرغتا ، وأخرجت الاقمشة والثياب والاشياء الاخرى من لفائفها ، تركت الخادم سيدتها فى غرفتها .. فجلست « جان » وقد اعتراها شىء من التعب ، وراحت تفكر فيما ينبغى ان تفعل وتنشد شيئا يشغل بالها وعملا يشغل يديها . ولم تجد من نفسها ميلا للنزول الى قاعة الجلوس لتنضم الى أمها التى كانت تغفو فى مقعدها ، ففكرت فى أن تتمشى خارج الدار قليلا ، لكن الريف بدا لها كئيبا .. حتى لقد داخلها الضيق وهى تسرح بصرها فيه خلال النافذة

ثم فطنت الى أنه لم يعد لها مايشغلها ، بعد أن عاشت طيلة صباها فى الدير مشغولة بالتفكير فى المستقبل ، وبالاستغراق فى الاحلام . وكان انفعالها المستمر وقلقها على آمالها يملآن ساعاتها ، فلا تحس للزمن انصراما . على أنها لم تكد تغادر تلك الجدران الكالحة حيث تفتحت خيالاتها ، حتى تحقق رجاؤها فى الحب فورا ... اذ التقت بالرجل الذى كانت تتوق اليه ، فأحبته ، وتزوجت منه ، فى اسابيع قلائل ، كما يحدث للناس حين يتزوجون فى نوبات سريعة من الانسياق للحب . واحتواها زوجها فى احضانه دون ان يسمح لها بان تفكر فى شىء ...

بيد أن الوقائع العذبة التى مرت بها فى الايام الاولى للزواج ، أصبحت وقائع عادية يومية ، أغلقت أبواب الآمال غير الواضحة المعالم ، والشرود الفاتن الذى يصحب الحب .. أجل ، انتهى عهد الانتظار والترقب ، ولم يعد أمامها ماتفعله فى يومها أو غدها .. أو الى الابد !

فطنت الى ذلك بعقل تائه ، وشعور بالخيبة ، وعواطف مثقلة . وقامت ، فأسندت جبهتها الى زجاج النافذة البارد ، وبعد أن تطلعت زمنا الى السماء التى كانت تسبح فيها سحب معتمة ، قررت أن تنطلق الى الخارج

أهذه نفس الحقول ، ونفس الحشائش ، ونفس الاشجار التى كانت قائمة فى مايو ؟ ٠٠ ما الذى أصاب بهاء أوراق الشجر تحت الشمس ، وشاعرية المروج الخضراء ، حيث تنبت الازهار الحمراء الملتهبة ، والبنفسجية اليانعة ، وحيث تحوم الفراشات الصفراء الزاهية ، كأنما تشدها الى الزهور خيوط خفية ؟ ٠٠ ان الهواء لم يعد ينتشى بالحياة ، ويعبق بأريج الزهور العاطرة ٠٠

وكان الطريقان الممتدان فى الحديقة بين الاشجار ، يغسلهما انهمار أمطار الخريف دون انقطاع ، ويغطيهما بساط سميك من أوراق الشجر الذابلة المتساقطة تحت أشجار الحور ، التى تبدو عارية هزيلة ، ترتعش غصونها الرفيعة فى مهب الريح ، فتنفض عنها مابقى عالقا بها من الاوراق الصغيرة ٠٠ وكانت هذه الاوراق الذابلة الباقية ، تنفصل ، وتهوى فى الفضاء طيلة النهار ، كرذاذ لا ينقطع ٠٠

وسارت « جان » حتى البستان ٠٠ فاذا بالأسى يخيم عليه ، وكأنه مخدع رجل يحتضر ٠٠ وكان سياج الخضرة الذى اعتاد أن يفصل دروب الحديقة ويحجبها ، قد نحل وبلى ٠٠ والشجيرات المتشابكة تتخللها ثغرات كنسيج « الدانتللا » ، وكأن كل شجيرة منها تشهر غصونها فى وجه الاخرى ٠٠ والاوراق الجافة لا تنى تتساقط ، فيحركها النسيم لتتجمع فى أكوام محدثة حفيفا ، كآخر زفرات شجن يحتضر ٠٠ وثمة فئة قليلة من الطيور تتنقل من مكان الى آخر تبحث عن مأوى تحتمى فيه ٠٠ أما أشجار الزيزفون والدلب ، فكانت تحتمى بستار كثيف من أشجار الدردار التى قامت كحرس يصد عنها رياح البحر ، فبقيت فى كساء الصيف ، تتشح أولاها بغلائل من المخمل الاحمر ، وثانيتها بغلائل من الحرير البرتغالى ، وقد خلعت عليها طلائع أيام البرد هذين اللونين وفقا لطبيعة العصارات التى تجرى فيها ٠٠

وسارت « جان » بتؤدة فى « طريق البارونة » وبمحاذاة سياج مزرعة آل « كويار » ، وقد جثم على ذهنها شىء ، كأنه انعكاس السأم الطويل الذى يرتقبها فى الحياة الرتيبة التى تفتحت أمامها ..

وما لبثت أن جلست على السفح الذى حدثها فوقه «جوليان» عن الحب للمرة الاولى ، فبقيت هناك شاردة الذهن ،دون تفكير، وقد تاقت الى النوم لتنسى كآبة اليوم . ولمحت فجأة نورسا من طيور البحر يحلق فى السماء يحمله النسيم ، فتذكرت النسر الذى رأته فى كورسيكا ، فاهتز قلبها فى حنين الى شىء حلو تبدد الى الابد ! .. وخيل لها بغتة انها ترى الجزيرة

المشرقة ، بعبيرها الفطرى ، وشمسها التى كانت تنضج البرتقال والموالح ، وجبالها ذات الذرى الوردية ، وخلجانها اللازوردية ، ووهادها التى كانت السيول تتدفق خلالها ..

ثم طواها المنظر الرطب ، الموحش ، الذى كان يحيط بها ، وأوراق الشجر المتهاوية فى قنوط ، والسحب الداكنة التى كانت الريح تسوقها .. طواها بأفواف من الوحشة اضطرتها الى المبادرة بالعودة الى البيت حتى لاتنفجر باكية !

وكانت أمها تجلس مسمرة أمام المدفأة ، تغفو كالمعتاد تحت وطأة كآبة الايام ، وقد بعد بها عهد الشعور بهذه الوطأة .. وكان البارون قد خرج يتمشى مع جوليان ويبحث واياه أمورهما .. وهبط الليل ملقيا ظلالا كئيبة على حجرة الجلوس التى لم يكن يضيئها سوى وهج النار .. وكانت بقية من ضوء النهار فى الخارج ، تظهر الطبيعة وقد اضفت عليها نهاية العام جوا كالحا ، وبدت السماء المعتمة وكأنها لطخت بالوحل ..

وسرعان ما أقبل البارون ـ يتبعه جوليان ـ فلما ولج الحجرة المعتمة ، دق الجرس ، صائحا : « اسرعوا .. عجلوا بالانوار ، فان الظلام دامس هنا » .. ثم جلس أمام المدفأة وقرب قدميه ـ بنعليه المبتلين ـ من الفحم المتقد ، فأخذالوحل يتساقط عنهما اذ يجف .. ثم فرك يديه فى غبطة وقال : « اعتقد ان البرودة ستواتينا بالجليد .. فالسماء مشرقة من ناحية الشمال ، والبدر نراه الليلة ، ولن يلبث الصقيع ان يسقط »

.. ثم تحول الى ابنته قائلا : « والآن يا صغيرتى ، أسعيدة أنت بعودتك الى بلدك ، وبيتك ، وقومك ؟ »

وأحرجها السؤال الساذج ، فألقت بنفسها بين ذراعيه ، وقد أغرورقت عيناها بالدموع ، وقبلته فى انفعال ، كأنها تسأله صفحا ، اذ كانت رغم محاولتها ادخال الانشراح على

قلبها ، تحس بالأسى يجتاحها .. وفكرت فى كل ماكانت تمنى به النفس من فرح اذا ماعادت الى أبويها ، فأذهلها ماكان يشل مشاعرها من برود !.. أحست بما يحس به المرء اذا أطال التفكير ـ أثناء غربته ـ فى أحبائه ، ممن اعتاد أن يختلط بهم فى حياته اليومية ، حتى اذا التقى بهم ، أحس بقبضة قاسية تكبح جماح عواطفه ، ريثما تتجدد روابط الحياة المشتركة التى كانت تربطه بهم من قبل ..

* * *

◆ **واستغرق** العشاء وقتا طويلا ، وان لم يتخلله سوى حديث مقتضب .. وبدا جوليان كما لو كان قد نسى زوجته التى استسلمت ـ حين انتقلواالىغرفة الجلوس ـ للاغفاءبجوار المدفأة ، بينما استغرقت أمها فى النعاس ، فى الجانب المقابل .. واستيقظت «جان» بعد لحظة على صوتى الرجلين يتحدثان، فعجبت وهى تحاول تنبيه وعيها ، وساءلت نفسها عما اذا كانت ستغدو أسيرة هذا النعاس الكئيب الذى لايبدده شىء !

وأخذ لهب المدفأة ، الذى كان واهنا محمرا فى أثناء النهار، يندلع ويتألق ، ملقيا ومضات عابرة على الرسوم الحائلة التى كانت تكسو المقاعد .. رسوم « الثعلب والبجعة » ، و «أبو قردان الحزين » ، و « الجراد النطاط والنملة » .. الخ

واقترب البارون مبتسما ، فعرض راحتيه للفحم المتأجج، وقال : « آه ! .. ان النار تستعر الليلة .. والبرد جليدى ياولدى » . ثم ربت بيديه على كتفى « جان » ، وقال مشيرا الى النار : « هل ترين يا ابنتى ؟ .. هذا خير مافى الدنيا .. مدفأة البيت .. المدفأة ، يجتمع حولها الاهل .. لاشىء يعدل هذا .. ولكن ، لقد حان ان تأويا الى مخدعكما ، فلا بد انكما متعبان ياولدى ! »

وعجبت « جان » ، حين أوت الى غرفتها ، من الفارق بين عودتها فى المرتين الى هذا المكان الذى كانت تخال انها تحبه! ٠٠ لقد كانت تحس ان هذا البيت ، وهذا الريف العزيز ، وكل هذه الاشياء ، تثير فى قلبها الهناءة ٠٠ فما بالها اليوم تؤلم قلبها ؟

ووقع بصرها فجأة على الساعة ٠٠ كان البندول الذى على شكل نحلة صغيرة لا يزال يتأرجح من اليسار الى اليمين ، ومن اليمين الى اليسار ، بنفس الحركة السريعة المتواصلة ، فوق حوض الزهور ٠ واحست « جان » فجأة بفورة عاطفية ٠ أوشكت أن تدفع الدمع الى عينيها ، وهى تتأمل هذه الآلة الصغيرة التى بدت حية ، تغنى لها مرور الوقت، وتدق كخفقان قلبها ٠٠ انها لم تنفعل بمثل هذا القدر وهى تقبل أباها وأمها ٠٠ حقا ان للقلب أحوالا غامضة لا يصل الى فهمها الادراك !

وللمرة الاولى منذ زواجها ، انفردت فى فراشها ، اذ اتخذ « جوليان » لنفسه مخدعا آخر ، بحجة التعب ٠ ومن ثم رؤى أن يكون لكل منهما مخدعه الخاص ٠ وطال بها ارتقاب النوم ، وقد أمضها الشعور بأن لم يعد الى جوارها أحد ـ بعد أن ألفت ألا تنام وحيدة ـ وأهاجتها ريح الشمال العاصفة التى تصفع السقف !

واستيقظت فى الصباح على نور فياض يغمر أسفل سريرها ٠٠ وكان زجاج النافذة مكسوا بالصقيع ، وقد سرت فيه حمرة كانمـا كان الافق بأسره يتأجج نارا ٠٠ فالتفت فى ثوب واسع ، وهرعت الى النافذة ففتحتها ٠ وهبت نسـمة مثلوجة ، نقية ، نفاذة ، اقشعرت لها بشرتها ، وسرت فيهـا برودة دمعت منها عيناها ٠٠ وفى كبد السماء الارجوانية اللون ، برزت شمس كبيرة صاعدة من وراء الاشجار ، منتفخة متضرجة ، كوجه شخص مخمور !

وكانت الارض مكسوة بصقيع أبيض ، يبس وجف وأخذ يتهشم فى أزيز تحت أقدام الفلاحين · وكانت أغصان شجر الحور قد تجردت فى تلك الليلة من كل مابقى عليها من أوراق ·· ومن خلف المنطقة الجرداء التى كان العشب الشوكى ينمو فيها ، بدا صف كبير مخضوضر من الأمواج المخفوقة ، وقد توج الزبد قممها من فرط تلاطمها ··

وأخذت شجرة الدلب والدرداره تنضوان فى عجلة أوراقهما تحت سياط الريح ، وكلما هبت عليهما ريح ثلجية ، تناثرت الاوراق التى انتزعها الصقيع المفاجىء وتطايرت فى الهواء كزغب الطيور · وارتدت « جان » ثيابها وخرجت ·· واذ أعوزها أن تجد ماتفعله ، سعت الى زيارة المزارعين ··

ورحب بها « مارتن » وزوجته ، وقبلا وجنتيها ، وألحا عليها فى أن تحتسى كأسا من شراب خفيف كتحية · ثم سارت الى المزرعة الاخرى ، فتلقاها آل « كويار » فى أحضانهم ، وقبلتها ربة الدار فى لطف ، وقدمت لها كأسا من النبيذ الاسود ··

وانقضى اليوم كسالفه ، وقد حلت البرودة فيه محل الرطوبة · **وشابهت بقية أيام الاسبوع هذين اليومين ، كما شابهت أسابيع الشهر هذا الاسبوع الاول ·· على أن شوقها الى البلدان النائية أخذ يقل رويدا · وخلعت العادة على حياتها ستارا من الاتزان كرذاذ الطباشير الذى تخلفه ينابيع المياه الجرية على الاشياء· وعاد ينبع فى قلبها بعض اهتمام بألف ظاهرة من توافه الحياة اليومية التى لا معنى لها ··**

ومع ذلك ظلت قلقة ، لا تدرى تماما حاجتها أو رغبتها ·· ما الذى كانت ترجوه ؟ ·· ما الذى كانت تشتهيه ؟ ·· لم تكن تدرى ! ·· لم تداخلها رغبة الى حاجة دنيوية ·· ولم يكن بها ظمأ الى المسرات ، ولا ميل لأبسط المباهج الممكنة ، فماذا

كان يعنيها منها ؟ .. لقد فقد كل شيء لونه فى عينيها تدريجا، كما بهتت وحالت رسوم مقاعد قاعة الجلوس العتيقة ، مع الزمن . كل شيء فقد طابعه القديم ، أو اتخذ مظهرا شاحبا ، كئيبا .

.. وعلاقاتها بجوليان تغيرت تماما ! .. أصبح ـ منذ عودتهما من رحلة القران ـ يبدو شخصا آخر ، أشبه بممثل فرغ من أداء دوره ، وعاد الى شخصيته العادية .. كان قلما يبدى ماينم عن شعوره بوجودها ، بل قلما كان يكلمها .. واختفى فجأة كل أثر للحب .. وقلت الليالى التى كان يتردد فيها على مخدعها .. وكان قد تولى الاشراف على الثروة والبيت ، فأبدل

عقود الايجار ، وأرهق الفلاحين ، واختصر النفقات ، وفقد أناقة الخطيب الشاب ورواءه ، ليتخذ مظهر السيد الريفى ٠٠ فلم يعد يخلع عنه سترة مخملية قديمة من سترات الصيد ، وجدها فى صوانه ، تزينها أزرار نحاسية ، رغم أنها كانت ملطخة بالبقع ٠٠ وأصبح يهمل لحيته ـ حتى أصبح منظرها غير المهذب يشوه مظهره الى حد يفوق التصور ـ مسوقا بحكم الاهمال الذى يستولى على أولئك الذين لم يعودوا يحسون فى أنفسهم بالحاجة الى أن يروقوا فى أعين الغير !٠٠ كما لم يعد « جوليان » يعنى بيديه ، وأخذ يكثر من احتساء الخمر بعد الوجبات ٠٠

وجربت « جان » معه اللوم الرفيق ، لكنه كان يجيب فى اقتضاب ، بحيث لم تعد تواتيها الجرأة على نصحه !٠٠ فراضت نفسها على تعود هذا التحول فيه بدرجة باتت تدهشها ٠٠ لقد غدا غريبا بالنسبة لها ٠٠ غريبا أغلق عليها فهم روحه وقلبه ٠ وكثيرا ماراحت تفكر متسائلة : كيف انهما بعد أن التقيا وتحابا وتزوجا فى رواء من العاطفة ، وجدا نفسيهما فجأة وكأن كلا منهما مجهول من الآخر ٠٠ وكأنهما لم يرقدا يوما جنبا الى جنب !

وكيف لم تعد تألم لهذا الاهمال ؟٠٠ أهكذا هى الحياة ؟ ٠٠ أتراهما خدعا نفسيهما ؟٠٠ ألم يعد المستقبل يدخر لها شيئا ؟٠٠ كان من المحتمل أن لا تشتد بها التباريح لو أن « جوليان » ظل مليحا ، مهذبا ، أنيقا ، فاتنا ٠٠ كعهده فى الماضى ٠٠

* * *

• **وتقرر** أن يرحل أبوها وأمها بعد مطلع العام الجديد الى دارهما فى (روان) كى يقيما بضعة شهور ٠٠ بينما يقضى الزوجان الشابان الشتاء فى ضيعة « الحور » حتى يألفا الوسط

الذى سيقضيان فيه عمريهما • وكان لهما الى جانب ذلك جيران ينبغى أن يقوما بزيارتهم : آل « بريزفيل » ، وآل « كوتيليه » ، وآل « فورفيى » ، الذين اعتزم « جوليان » أن يقدم اليهم زوجته • ولم يكن فى وسعهما قبل الآن أن يؤديا هذه الزيارة ، اذ كان لا بد من أن يرسم على عربة الاسرة شعار جديد • وماكان جوليان ليرتضى الذهاب اليهم ـ مهما كانت الاعتبارات ـ قبل أن يرسم على العربة شعار آل « دولامار » الى جانب شعار آل « برتوى ديه فود » !•• ولم يكن فىالريف من يجيد رسم هذه الشعارات التقليدية غير رجل واحد ، يدعى « باتاى » ، اعتاد على مر السنين أن يتنقل من قلعة الى قلعة ، يرسم الشعارات لأسرات نورماندى العريقة على مركباتها • ويقولون انه ارتكب يوما حماقة غرامية ، لكن مخالطته للطبقة الراقية جعلت الناس ينسونها منذ أمد بعيد •

وفى صباح أحد أيام شهر ديسمبر ، وصل « باتاى » الى قصر شجر الحور ، يحمل صندوق أصباغه على ظهره ، فاقتيد الى قاعة المائدة ، وقدم له الطعام على غرار مايقدم لعلية القوم، **فان استمرار مجالسته لأبناء الطبقة العليا ، ودرايته بتقاليد الأسرات العريقة ، خلعا عليه شيئا من الرفعة ، بحيث ماكان الارستقراطيون ليعافوا مصافحته ومعاملته كما لو كان ندا لهم!** وبينما كان «باتاى» يتناول الفطور ، أخذ البارون وجوليان يرسمان بعض الاشكال ، والبارونة التى كانت تولى هذه الاشياء عادة اهتماما كبيرا ، تواليها بمشورتها •• حتى «جان» اشتركت فى المناقشة • واذ فرغ «باتاى» من الافطار ، توجه الى حظيرة العربة ، فنزع الغطاء عن المركبة • وقام بفحصها مليا ، ثم أوضح المقاسات التى يراها للرسم ، وبعد أن تبادلوا جميعا الرأى ، أقبل على العمل ••

ومع أن البرد كان قارسا ، فقد اتخذت البارونة مجلسا فى

الحظيرة لتراقبه فى عمله .. فلما سرت البرودة الى قدميها ، طلبت بعض الجمرات لتدفئتهما .. وظلت جالسة تتحدث الى « باتاى » ، تسائله أنباء المواليد والزيجات والوفيات . وجلس «جوليان» الى جوار حماته ينصت ويدخن غليونه ، ويشاهد فى الوقت ذاته تقدم الرسام ..

ومر بهم سيمون العجوز فى طريقه الى الحديقة ، فتوقف هو الآخر ليتأمل الرسم .. وكان النبأ قد سرى في المزرعتين، فأقبلت نسوة المزارعين ، ووقفن الى جانبى البارونة ، يظهرن الاعجاب ، ويطرين عمل «باتاى» ..

ولم يكتمل الرسم قبل الساعة الحادية عشرة من الصباح التالى ، وآذ ذاك نقلت العربة الى الخارج .. وكان الكل حاضرا ، فأعلنوا ان الرسم تحفة فنية .. وتلقى «باتاى» المديح ، ثم انطلق فى طريقه وصندوقه على ظهره . وأجمع البارون وزوجته ، وجوليان ، وجان ، على أن « باتاى » كان بارعا ، وانه كان جديرا بأن يغدو فنانا عظيما

* * *

◆ **وفرض** تقتير جوليان على قصر « الحور » عدة قواعد جديدة : فقد أصبح الحوذى العجوز بستانيا ، اذ قرر جوليان أن يقود العربة بنفسه . كما انه باع جوادى المركبة ، كى يقتصد قيمة غذائهما ! ولما كان لابد من شخص للحظيرة ، كى ينظف العربة ، فقد عين «ماريوس» ــ حارس البقر ــ لهذه المهمة . **ثم رسم « جوليان » خطة للحصول على جوادين للعربة دون أن يبتاعهما ، فأضاف الى العقد الذى أجر به المزرعتين لآل « كويار » و « مارتن » بندا يلزمهما بأن تقدم كل من الاسرتين اليه جوادا ، فى يوم من أيام الشهر يعينه لهما ، فى مقابل اعفائهما من ضريبة الدواجن** .. ومن ثم ، فقدأحضر آل « كويار » اليه جوادا ضخما ، أشعث ، أصفر الشعر ..

بينما أرسل آل « مارتن » حصانا أبيض ، صغيرا ، طويل الشعر ، فشد «ماريوس» الحصانين غير المنسجمين الى العربة، وهو يكاد يغيب فى حلة « سيمون » الرسمية ٠٠ ثم قادها الى مدخل القصر ٠

ونزلت البارونة ، مستندة الى ذراع زوجها الذى ساعدها على الصعود الى العربة ، وسوى لها الوسائد ٠٠ ثم أقبلت «جان» فضحكت من منظر الجوادين الغريب ، وقالت ان الابيض يبدو كأنه حفيد الاصفر ! واذ رأت الصبى «ماريوس» بقبعته العالية التى وصلت حوافها الى أذنيه وأنفه ، وقد غابت يداه فى كمى سترته التى انسدل ذيلها الى قدميه ٠٠ واذ رأته يطوح برأسه الى الوراء ليستطيع رؤية ما أمامه من تحت حافة القبعة ، ويرفع قدميه عاليا اذا سار ، كأنه يهم بأن يقفز عبر قناة ٠ ٠انفجرت فى ضحك لم تقو على كتمانه ! ٠٠ والتفت البارون الى «ماريوس» فاذا المنظر فوق مايحتمل ، فانفجر هو الآخر ضاحكا ، وقال لزوجته : « انظرى الى ماريوس !٠٠ انظرى ٠٠ ألا يبدو مضحكا ؟ »

وأطلت البارونة من النافذة ، فلما رأت ماريوس ، تولتها نوبة من الضحك اهتزت لها العربة . وشحب وجه جوليان غضبا ، اذ كان يظن أن كل شيء كفيل بأن يبعث على الرضى ، فالتفت اليهم قائلا : « ماذا جرى لكم جميعا ؟.. لابد انكم اختبلتم »

واستبد الضحك بجان ، فعجزت عن الكف عنه . وجلست على سلم العربة مع البارون ، بينما كانت البارونة داخل العربة تكاد تختنق من فرط الضحك . وفجأة، أدرك « ماريوس » ماكان يضحكهم ، فطفق هو الآخر يضحك تحت قبعته الكبيرة ، وذيل سترته المشطور يهتز كجناحين يخفقان . واشتد الحنق بجوليان ، فصفع الفتى فى قسوة ، أطاحت بقبعته الضخمة . ثم عاد الى حميه قائلا فى غضب: « يبدو لى ان من كان فى مثل مركزك لاينبغى له أن يضحك ، فلو انك لم تبدد نقودك لما أصبحنا فى مثل هذه الظروف العصيبة . على من كان يقع الذنب لو انك كنت أفلست ؟ »

وكانت عبارته كماء مثلوج صب على الجميع ، اذ انقطع الضحك فورا . وأوشك الدمع أن ينبثق من عينى « جان » ، فاتخذت مجلسها الى جوار أمها فى هدوء وجلس البارون أمامهما واجما ، مستاء . اما جوليان فاعتلى مجلس السائق ، وأجلس ماريوس الى جواره .. وكان الفتى يبكى ، وقد أخذت عيناه تحتقنان ..

وخيم الصمت والاكتئاب على الثلاثة الذين كانوا بداخل العربة ، اذ آثروا السكوت ، وقد أدركوا أن أفكارا حزينة واحدة كانت تطوف برؤوس ثلاثتهم ، وانه لم يكن من سبيل الى الكلام دون أن يتعرضوا للموضوع الاليم

وهكذا كانت الرحلة كئيبة ، بغيضة .. كما ان عدم اتساق خطوات الجوادين كان يهز العربة بعنف طيلة الطريق ، ويفزع

الدجاج ، ويثير الكلاب التى راحت تنبح فى عنف وراء المركبة العجيبة !

* * *

• **وبلغوا** فى النهاية طريقا عريضا تحف به أشجار الصنوبر ، فأخذت العربة تقفز فى ارتفاع وانخفاض على أرضه غير المعبدة ، مطوحة بمن فى داخلها فى كل اتجاه ، حتى اضطرت البارونة الى أن تصرخ مذعورة . وأخيرا وصلوا الى بوابة بيضاء ، فهبط « ماريوس » وفتحها .. وصافح بصر القادمين منظر مرج واسع ، يفضى الى مبنى ضخم ، كئيب ، أحكم اغلاق نوافذه

وفتح الباب ، وخرج منه خادم مسن نصف مفلوج ، فى معطف مخطط لا يكاد يخفى مرولته ، فأقبل يحيى الزائرين ، ويسير فى غير استواء بخطى يقيدها الشلل . وبعد أن عرف أسماءهم ، قادهم الى قاعة استقبال رحبة ، وفتح النوافذ ، ثم تركهم . وجلسوا وهم يتفقدون بأبصارهم ماكان فى الحجرة من متاع ، وساعة ، وشمعدانات ، كانت كلها مغطاة بكساء من قماش . وكان الجو قارسا ، رطبا ، ينفذ الى الرئات

وثم وقع أقدام مسرعة فى الحجرات العليا ، عن تعجل غير عادى .. ثم سمعت خطوات أخرى تستجيب لجرس ، مما أوحى بأن ربى البيت كانا يرتديان ثيابهما فى عجلة .وكانت البارونة قد أصيبت ببرد ، فأخذت تعطس مرارا ، وقد جلست « جان » الى جوارها واجمة ، مكتئبة . بينما أخذ « جوليان » يذرع الغرفة ، ووقف البارون عابسا ، وظهره نحو المدفأة

وفتح الباب أخيرا ، فولج فيكونت وفيكونتة « بريزفيل » .. كانا قصيرين ، نحيلين ، وقد لاحا متكلفين ، مرتبكين ، فى ثيابهما الرسمية .. كانت الفيكونتة ترتدى ثوبا حريريا موشى بالزهور ، وقلنسوة فخمة تزين شعرها الناعم..وكانت

تتكلم فى لهجة سريعة ، ونبرة رفيعة ، حادة ٠٠ أما الفيكونت فكان فى سترة فخمة التفت حول جسمه باحكام ، وكان يحنى ركبته اذا ما انحنى محييا ، فى أبهة بالغة ، وقد بدا متألقا من رأسه الى قدمه ٠ وكان من العسير ان تحدس عمريهما ، وقد اكتسبا منظر الاشياء الانيقة التى طال حفظها فى عناية شهورا طويلة !

وساد الغرفة ـ بعد تبادل المجاملات العادية ـ لغط عام ٠٠ ثم بدأ الحديث ينتظم قليلا ، فأعرب الجميع عن أملهم فى أن تستمر بينهم صلات الود ، وان من موارد السرور ان يتردد المرء على جيرته اذا كان يقيم فى الريف طيلة العام

وكان الجو البارد يثلج أطرافهم • وأخذت آلبارونة تسعل وتعطس بالتناوب ! وأخيرا ، استأذن البارون فى الانصراف ، فاحتج ربا الدار قائلين : « أبهذه السرعة ؟ •• ألا أمكث معنا وقتا أطول » •• ولكن « جان » وقفت متأهبة ، رغم ان جوليان ــ الذى رأى ان الزيارة كانت أقصر مما ينبغى ــ راح يشير اليها كى تجلس !

وأخذت المضيفة تدق الجرس لاستدعاء العربة ، ولكن الجرس تعطل ، ومن ثم هرع رب البيت ، ثم عاد سريعا معلنا ان الجوادين غير مشدودين الى العربة ، فجلس الجميع ثانية ، ينتظرون • وعاد اللغط ، وقد أخذ الجميع يتحدثون عن الجو ، اذ أعوزهم موضوع للحديث • وما لبثت « جان » أن سألت المضيفين كيف يشغلان وقتهما ؟ ولم تكن تتمالك نفسها من الارتعاش لبرودة الجو • وأدهش السؤال ربى البيت ، فقالا ان لديهما الكثير مما يشغلهما ، فهما يواظبان على مراسلة كثير من أقاربهما بانتظام ، فضلا عن انهما يجدان أمورا كثيرة يتحدثان فيها ، وقط لم يشعرا بحاجة الى ما يشغلهما

وأخيرا ، أقبلت العربة عند الباب ، ولكن ماريوس اختفى •• ولابد انه ظن ان لن تكون ثمة حاجة اليه قبل المساء ، فذهب يتنزه • وأهاج ذلك جوليان ، فأمر بأن يرسل الى الضيعة بعدهم •• وبعد عدد من الانحناءات من الجانبين ، انطلق الجمع نحو « أشجار الحور » •• وما أن أغلق باب المركبة ، حتى أخذت جان وأبوها يضحكان ويقلدان « دى بريزفيل » وزوجته ، فى صوتيهما ، وحركاتهما ، وسلوكهما ، وقد أفاقا مما كان قد أحدثه سوء مسلك جوليان فى نفسيهما • ولم يرق هذا للبارونة ، فقالت : « مايليق بكما ان تسخرا منهما ، فهما لطيفان ، وينتميان الى أسرة راقية » • فأمسكت جان والبارون عن الحديث حتى لايغضباها ، ولكنهما لم يلبثا أن

عادا من جديد ، لايقويان على مقاومة الاغراء · فابتسمت البارونة فى حنو ، وهى لا تزال غير راضية عن تصرفهما وقالت : « لا يخلق بكما أن تسخرا من قوم من طبقتنا »

وفجأة وقفت العربة ، وسمعوا جوليان ينادى شخصا مقبلا من خلف ، فأطلت جان والبارون من النافذة ، وأبصرا شيئا غريبا يتدحرج نحوهم·· **كان «ماريوس» يجرى بكل مافيه من قوة ليلحق بالعربة ، وهو يلقى عناء ، اذ كان طرفا ذيل سترته يلتفان حول ساقيه فيعوقانه · وكانت احـدى يديه تضغط القبعة على رأسه ، فتحجب بصره ، بينما كانت اليد**

الاخرى تعلو وتهبط كذراع طاحونة !٠٠ وكان يسقط فى البرك الموحلة ، ويتعثر فى الاحجار ، حتى لحق بالعربة فى النهاية ، فرفعه جوليان الى جواره من ياقة ثوبه ، وترك عنان الجوادين ، لينهال باللكمات على رأس الفتى حتى بلغت القبعة كتفيه !٠٠ وكان الفتى يصرخ ، ويحاول الفكاك ، لكن جوليان أمسك به باحدى يديه ، بينما راح يصفعه بالأخرى ٠ وهتفت جان : « ابت ! ٠٠ أواه ، يا أبت ! »

وثارت نخوة البارونة ، فأمسكت بذراع البارون وقالت: « لماذا لا توقفه ياجاك ؟ »

فأنزل البارون باب النافذة الامامية ، وأمسك بذراع جوليان وقال : « كف عن ضرب الغلام »

فأجاب جوليان : « انظر ماذا فعل ببزته ؟ ٠٠ لقد اغرق الحيوان نفسه فى الطين ! »

ـ هذا لا يدعوك لأن تغالى فى القسوة !

فصاح جوليان فى غضب : « الزم شئونك ودعنى فى شئونى » ٠ ورفع يده ليضرب الفتى من جديد ، لكن البارون أمسكها وقال : « اذا لم تكف عن ضرب الغلام فسأهبط واضطرك » ٠ وهدأ جوليان ، وهز كتفيه ، ثم شفى غليله بأن انهال على الجوادين بالسوط ٠٠ وظلت المرأتان جامدتين ، فلم تتحركا ، أو تتكلما !

وحين جلسوا للعشاء فى تلك الليلة ، كان جوليان لطيفا ، وكأن شيئا لم يحدث ! وسرهم ، لصفاء قلوبهم وكرمها ، أن يروه يعاود دعاباته ، فشاطروه تلطفه فى ابتهاج ٠ وعادت « جان » تتحدث عن آل « بريزفيل » ، فأخذ «جوليان» نفسه يسخر منهما ويقلدهما لكنه أردف فى سرعة : « ومع ذلك ، فهما جد لطيفين »

* * *

◆ **ولم** يقوموا بزيارات أخرى خشية أن تتكرر مسألة « ماريوس » ، بل اتفقوا على أن يكتفوا بارسال بطاقات فى رأس السنة ، ثم يتريثوا حتى يحين الربيع فيستأنفوا زياراتهم . فلما حان عيد الميلاد ، دعوا قس القرية والعمدة وزوجته لزيارتهم وقضاء بعض الوقت معهم ، ثم دعوهم مرة أخرى فى رأس السنة . وتوالت بعد ذلك نفس الحياة الرتيبة تتشابه يوما بعد يوم ..

وعقد البارون والبارونة نيتهما على أن يرحلا فى يناير ، فحاولت « جان » أن تغريهما على البقاء ، لكن برود « جوليان » ضايقهما ، فأصرا على السفر . وفى اليوم السابق ليوم الرحيل، كان المساء بديعا ، فزارت « جان » مع أبيها ضاحية (ايبور) — ولم يكونا قد ذهبا اليها عقب العودة من (كورسيكا) — واجتازا الغابات التى سارت فيها مع « جوليان » قبيل زواجهما : **هنا تلقت أولى قبلاته !.. وهناك استلقت على ذراعه، ، ومزجت روحها بروحه ، فغدت شريكته طول العمر .. وفى هذا الدرب ارتجفت نشوة حين بدت لها أولى امارات الحب الذى لم يكن لها به علم ، والذى لم تعرفه حتى التقت شفتاها بشفتى جوليان عند الغدير فى (أوتا) !**

وكانت الغابات عارية ، موحشة .. والاشجار بلا أوراق .. وكل شىء يرزح تحت وطأة الشتاء .. وبلغا (ايبور) فى النهاية ، فاذا الطرقات هادئة ، خاوية ، وقد نشرت شباك الصيد الكبيرة امام الدور لتجف ، وشاعت رائحة أعشاب البحر فى كل مكان . وكان هدير البحر يسمع عن كثب .. وقوارب الصيد ملقاة على جوانبها على الشاطىء الرملى ، كأنها اسماك ضخمة ميتة ! وكان الظلام قد بدأ يشتد ، فأقبل الصيادون جماعات ، يسيرون بخطى ثقيلة ، بأحذيتهم

الضخمة ، وثيابهم المتهدلة ، وقد أمسك كل منهم بزجاجة شراب فى احدى يديه ، وبمصباح فى اليد الاخرى

وأخذت « جان » وأبوها يراقبانهم وقد انشغلوا باعداد قواربهم للانطلاق فى البحر ٠ وكانوا يتحركون بذلك البطء الذى يمتاز به أهل الشمال ، فيضعون فى الشباك والعوامات، رغيفا ضخما من الخبز ، وقطعة من الزبد ، ثم زجاجة وكوبا ٠ فلما تم اعداد كل شىء ، دفعت القوارب الى الماء ، فانزلقت على الحصى فى جلبة ، ثم تراقصت فى رشاقة على الأمواج، والمصابيح على قمم الصوارى ترشد الى الطريق الذى ينبغى أن تسلكه ٠ وما لبثت القوارب أن اختفت واحدا بعد الآخر ٠٠ وراقبت زوجات الصيادين القارب الاخير وهو يختفى ، ثم سرن الى القرية وخطاهن تحدث ضجة ، وأصواتهن الحادة توقظ القرويين

وفيما كانت « جان » والبارون يشاهدان اختفاء الصيادين ، راحا يفكران فيما يعرض هؤلاء التعساء المساكين حياتهم له من أخطار كل مساء ، فى سبيل الحصول على ما يقيم الأود ٠٠ لقد كانوا من البؤس بحيث ان اللحم كان ترفا غير مألوف لديهم !

وقال البارون : « ما أجمل هذا البحر !٠٠ ومع ذلك ، فما أفظعه !٠٠ ألا ترينه رائعا ياجانيت ؟ »

فأجابت فى ابتسامة شاحبة : « أجل ٠٠ ولكنى أفضل عليه البحر الابيض المتوسط »

ـ الابيض المتوسط ؟٠ ٠ انه بحيرة وديعة ! ٠٠ أما هذا ، فانظرى اليه ٠٠ فكرى فى هؤلاء الذين اختفوا الآن ، انهم فى طريقهم الى حيث يسلمون حياتهم الى رعايته ٠٠ تأملى هذه الامواج التى كالجبال ٠٠ ما أروع جمالها !

قالت جان : « هذا حق » ، وتنهدت ٠ بيد ان أفكارها كانت تحلق الى ذلك البلد البعيد الذى دفنت فيه أحلامها بالحب !

وبدلا من أن يعودا خلال الغابات ، سلكا الطريق العامة ، على مهل ، وقد لاذا بالصمت ، وأفعم قلباهما بالأسى للفراق المرتقب . وحين مرا بالمزارع ، كان الهواء يعبق بعبير التفاح الطازج المعصور ، وخمره المعدة للتعبئة ، وبدا على البعد نور واهن ينم عن المساكن المتواضعة القائمة بعيدا عن الطريق ، فهامت روح « جان » نحو هذه الاشياء التى لم يكن بصرها يستبينها واضحة .. كانت الانوار المتناثرة هنا وهناك ، تبعث فى « جان » شعورا بالوحدة ، فبكى قلبها اشفاقا على أولئك الذين قضى عليهم بفراق أحبائهم ، وبالحرمان من الاشياء التى يعتزون بها ، ويصبون اليها .. وقالت فى لهجة وقور : « ليست الحياة اشراقا دائما ! » .. فقال البارون، وهو يتنهد : « هذا ماليس منه بد ياعزيزتى »

وفى اليوم التالى غادر البارون وزوجته ضيعة « أشجار الحور » ، وخلا كل من جان وزوجها الى صاحبه .

الفصل السابع

• ادخل «جوليان» لعب الورق فى حياتهما كملهاة للتسلية، فكانا اذا فرغا من الافطار كل يوم ، يلعبان عدة أدوار ، بينما يدخن جوليان ويحتسى عدة كؤوس من « الكونياك » . وكانت « جان » تصعد بعد ذلك الى غرفتها ، فتتخذ لنفسها مجلسا بالقرب من النافذة ، وتقبل على التطريز . وبينما الريح والمطر يصفعان النوافذ ، كانت تسترسل فى الاحلام .. فما كان لها فى الواقع من عمل سواها ، اذ كان « جوليان » يتولى كل الاعمال ، وكأنه يجد فى ذلك ارضاء لما يخالجه من شوق الى

السلطة ، والى الاقتصاد ! ٠٠ فقد كان مقترا الى درجة لاتطاق، وأنقص كميات الطعام الى حد الكفاف ٠ وكان الخباز قد ألف احضار بعض الكعك النورماندى فى كل صباح لافطار «جان»، فألغى « جوليان » هذه العادة ، بدعوى ان ثمنها « اسراف من غير طائل » ! ٠٠ ومن ثم أصبحت « جان » المسكينة تكتفى بالخبز « المحمص » ٠ ومع انها لم تفتح فمها بشكوى ، تفاديا للشجار ، الا أنها راحت تتألم فى صمت ٠ كان بخل زوجها يبدو لها ضعة وصغارا لا تفقه لهما مبررا ، فقد نشأت على غير هذا ، وكانت أمها لا تفتأ تقول : « لقد خلقت النقود لتنفق » ٠٠ أما « جوليان » فكان على النقيض ٠ لم يكن ثمة من يفوقه سعادة اذا هو ادخر بضعة « سنتات » أو أبرم صفقة طيبة ٠٠ وكثيرا ماقال لجان ٠ « ألن تعرفى يوما قيمة النقود ؟ »

وكانت « جان » تستسلم فى بعض الايام لاحلامها القديمة ، فتكف عن العمل تماما ، ويشرد بصرها بعيدا ، بيد انها لا تلبث أن ترتد الى عالم الحقيقية بمجرد أن تسمع صوت « جوليان » يصدر أوامره لسيمون أو سواه ، فتعاود التطريز وهى تزفر فى أسى !٠٠ وكثيرا ماكانت تفلت من عينيها دمعة تسقط على يديها ، فتتمتم : « وا أسفاه ! ٠٠ لقد انقضى كل هذا وراح !»

أما « روزالى » ــ التى كانت مرحة فى العادة ــ فقد اعتراها تغير كبير ، اذ ذبلت وجنتاها اللتان كانتا ممتلئتين متوردتين ، وشحبتا ٠ وكثيرا ماكانت « جان » تسألها : «أمريضة أنت ؟» ٠٠ فكانت تجيبها دائما : « لا ، ياسيدتى » ، ثم تنصرف مسرعة خجلى ٠٠ وبعد أن كانت خطواتها كقفز الظباء ، أصبحت تجر قدميها فى عناء ٠ ولم تعد سلع الباعة المتجولين تجتذب اعجابها ، وكأنها فقدت الاهتمام بكل شىء !

☆ ☆ ☆

• **وأقبلت** نهاية شهر يناير ، والبيت العتيد يبدو مهملا موحشا ، وقد آتشح بطبقة من الجليد • وأخذ « جوليان » ينفق وقته فى البستان القائم خلف الدار ، يرقب فلول الطيور النازحة •• وكانت تخرق هدوء الشتاء أحيانا طلقة من بندقيته، فتلوذ الغربان بالفرار متصايحة ••

وكان الأسى يستبد بالزوجة أحيانا ، فتخرج الى الشرفة لعلها تتسمع أصوات الحياة تتناهى اليها من بعد شاسع ، وسط السكون المطبق •• فكانت لاتسمع سوى هدير البحر الصاخب ، يعقبه صمت •• صمت أبدى ! •• وذات يوم قارس ، كانت تدفىء قدميها أمام مدفأة مخدعها ، بينما كانت « روزالى » تسوى الفراش ، وقد ازدادت تغيرا عما كانت •• **وفجأة ، سمعت « جان » زفرة حرى تنبعث من خلفها، فتساءلت دون أن تلتفت : « ماذا بك ؟ » •• فأجابت « روزالى » كعهدها:** « **لا شىء ياسيدتى** » •• ولاح صوتها واهنا ، غائرا ، لكن « جان » كانت فى شغل بأمور أخرى ، فلم تبد كثير احتفال •• الى أن انتبهت فجأة الى أن الفتاة كانت ساكنة ، فنادت: « روزالى ! » •• واذ لم تتلق جوابا ، ظنت أنها غادرت الغرفة، فصاحت بصوت عال : « روزالى »

ولم تسمع جوابا فى هذه المرة أيضا ،فمدت يدها الى الجرس: **ولكنها سمعت خلفها فجأة ، أنة متوجعة ، فاندفعت نحو مصدرها ، لتجد « روزالى » مستلقية على الأرض لا تقوى على الحركة ، وهى ترمق سيدتها فى ألم طاغ ، وتضغط أسنانها محاولة أن تكتم صرخة توجع ! •• وصاحت « جان » وقد اهتز قلبها اشفاقا : « ماذا بك ؟ •• نبئينى » •• غير ان الفتاة لم تجب • وسمعت « جان » أصواتا غريبة ، ثم لمحت شيئا يتحرك تحت ثوب الفتاة ! وعلى أثر ذلك انطلقت صرخة طويلة شاكية •• صرخة الألم من مخلوق يستقبل الحياة للوهلة**

الاولى ! ٠٠ وأدركت « جان » أخيرا جلية الأمر ، فهرعت الى قمة السلم تنادى : « جوليان ! ٠٠ جوليان ! »

فأجابها من أسفل : « ماذا تبغين ؟ »

قالت : « ان روزالى ٠٠ » ، بيد انها لم تقو على المضى ٠٠ وصعد « جوليان » السلم قفزا ، ينهب درجتين فى كل خطوة ، ودخل الغرفة ٠٠ وما أن رأى القطعة الآدمية الوليدة تتلوى وتصرخ على الأرض بجانب « روزالى » ، حتى أربد وجهه ، وقال وهو يدفع « جان » من الغرفة : « ليس هذا من شأنك ٠٠ استدعى لودفين وسيمون »

وهبطت « جان » الى المطبخ وهى ترتعش وتحس بالدوار ٠٠ ثم لم تجرؤ على الصعود ثانية ٠ ومالبثت أن رأت خادما يهرع مغادرا الدار ، ليعود مصطحبا أرملة « دنتو » ، قابلة

القرية ، ثم سمعت خطوات على السلم صاعدة ، هابطة ، وكأنهم يحملون شخصا ما ٠ وأخيراً نزل « جوليان » ليخبرها بأنها تستطيع أن تعود الى غرفتها ٠٠ فصعدت ، واستأنفت جلستها أمام المدفأة ، وهى ترتجف من رأسها الى قدميها ، وكأنها قد شهدت لتوها « حادثا » فظيعا ٠٠ ثم سألت زوجها: « كيف حالها ؟ »

وبدا « جوليان » مهموما ، ثائر الاعصاب ٠٠ وأخذ يذرع الغرفة بوجه عابس ، دون أن يجيب ، ثم وقف بغتة أمام جان وسألها : « **ماذا تنوين أن تفعلى بهذه الفتاة ؟** »

ولم تفقه « جان » قصده ، فسألته : « ماذا تعنى ؟ »

ـ اننا لا نستطيع بالتأكيد ان نستبقى طفلا غير شرعى فى البيت !

واضطربت « جان » ، ثم قالت بعد صمت طويل : « ولكنا نستطيع ان نودعه ملجأ ٠٠ »

فقاطعها « جوليان » فى خشونة : « **ومن ذا الذى سيدفع النفقات ؟ ٠٠ لعلك ستتكفلين بذلك ؟**»

ففكرت « جان » طويلا ، محاولة ان تحل هذه المشكلة ، ثم قالت أخيرا : « بل سيتكفل الاب بذلك ٠٠ ولسوف يغدو كل شىء على مايرام اذا هو تزوج من روزالى !»

فصاح « جوليان » فى هياج ، وصبر نافد : « **الاب ٠٠ الأب !٠ ٠هل تعرفين من هو هذا الاب ؟ ٠٠لا ٠٠ اذن ٠٠** »

قالت « جوليان » فى انفعال : « ما أراه من القسوة بحيث يهجر الفتاة ٠٠ والا كان جبانا ! ٠٠ سنعرف اسمه ، واذ ذاك سنذهب لمقابلته ونضطره الى أن يفعل شيئا ! »

فهدأ « جوليان » من سورته ، ثم تابع سيره فى الغرفة ، وهو يقول : « **انها ياعزيزتى لن تذكر اسمه لك ، ولا لى ٠ وهبى انه لايريد الزواج منها ؟ ٠٠ اننا لن نستطيع ان نستبقى هذه الفتاة ووليدها غير الشرعى فى دارنا !٠٠ هل فهمت الآن ؟**»

فعادت « جان » تقول فى اصرار : « هذا الرجل ـ أيا كان ـ نذل جبان ٠٠ ولكنا سنصل اليه ، ولن نظهر معه أية رحمة ! »

فتضرج وجه جوليان اذ ذاك ، وقال فى ارتباك : « أجل ، ولكن ٠٠ فى الوقت ذاته ٠٠ »

ولم تدر « جان » ماذا تقول أو ماذا تفعل ، فسألت جوليان : « ماذا تقترح ؟»

ـ آه ! ٠٠ لو جاز لى أن أقضى فى الامر ، لما فعلت أكثر من أن أمنحها مبلغا من المال ، وأطردها وطفلها ٠٠

فهتفت « جان » فى شمم : « محال ! ٠٠ ان هذه الفتاة أختى فى الرضاع ، وقد نشأنا معا ، فأنا أحبها ٠٠ صحيح انها زلت ، ولكنى لن أطردها لهذا ٠ ولو اقتضى الامر فسأتولى تربية طفلها ! »

ولم يعد « جوليان » قادرا على تمالك نفسه ، فصاح : **« أجل ٠٠ سنخلق لانفسنا سمعة طيبة ٠٠ سيقول كل امرىء اننا نأوى الرذيلة ، واننا نضم تحت سقفنا امرأة ساقطة ، وسيسخرون منا ، ويديرون لنا ظهورهم ٠٠ ولن ينشد أحد رؤيتنا أو التعرف الينا ٠٠ ماذا ترين ؟٠٠ انك ولا بد مجنونة!»**

بيد ان « جان » ظلت برهة ساكنة ، ثم أجابت : « لن أوافق أبدا على اقصائها ٠٠ اذا لم تشأ أن تأويها ، فستأخذها أمى ، وسنعرف من هو والد طفلها ، طال الزمن أو قصر ! »

وضاق صدر جوليان ، فخرج ، وصفق الباب خلفه قائلا : « ما أغبى النساء ! »

وفى الاصيل صعدت « جان » الى غرفة « روزالى » ٠ كانت أرملة « دنتو » تهز الوليد لينام ، وما أن رأت روزالى « جان » حتى انهمرت دموعها ، ثم أخفت وجهها فى الاغطية ، وأجهشت بالبكاء ٠ وأرادت « جان » أن تقبلها ، لكن « روزالى » صدتها بكل مافيها من جهد ٠٠ وأخيرا رفعت القابلة الأغطية عن

وجه الفتاة ، فقبلتها « جان » ·· ولم تقاوم روزالى فى هذه المرة ، وان ظلت تبكى فى خفوت ··

وكانت النار خابية ، والحجرة شديدة البرودة ·· وأخذ الطفل يبكى فى صراخ يثير المشاعر ، بيد ان جان لم تجرؤ على الحديث عنه ، خشية أن تعاود « روزالى » البكاء ، فاكتفت بأن أمسكت بيد الفتـاة ، وراحت تكرر فى شرود : « لا بأس يا عزيزتى ·· سيغدو كل شىء وفق ما يرام »

وألقت الفتاة نظرات مختلسة على الطفل الذى كان بين ذراعى القابلة ·· وكان الجزع الذى فاضت به عيناها يروى حبا يجل عن الوصف · ثم أخذت تبكى فى خفوت ، منهنهة ، فقبلتها « جان » مرة أخرى وهمست : « لاتخشى شيئـا ياعزيزتى ، سنعتنى به » ·· واذ انفجرت روزالى باكية من جديد ، قبلتها « جان » ثم بادرت الى مغادرة الحجرة ·

* * *

• وصارت تصعد الى « روزالى» بعد ذلك كل يوم ، فكانت « روزالى » تنفجر باكية كلما رأت سيدتها !·· ورؤى فى النهاية ايداع الطفل ملجأ قريبا ·

وأصبح « جوليان » قليل الحديث الى زوجته كأنما أحنقه عليها عدم طردها « روزالى » ! وذات يوم أثار الموضوع ثانية ، فتناولت « جان » من جيبها خطابا تلقته من أمها ، تسألها فيه أن ترسل اليها « روزالى » ثورا ، اذا لم يرغبا فى بقائها فى ضيعة الحور ·· فقال « جوليان » غاضـبا : « ان أمك تعادلك فسادا ! » ·· ثم أعرض عن الموضوع ·

واستطاعت الفتاة بعد أسبوعين أن تستأنف أعمالها فى البيت · وذات صباح ، حملتها « جان » على الجلوس أمامها ، وأمسكت بيديها ، ثم رمقتها بنظرة متلطفة وقالت : « **هيا ياروزالى ·· اخبرينى بكل شىء** »

ـ بماذا ياسيدتى ؟
ـ من هو والد هذا الطفل ؟

فذرفت المسكينة دمعا سخينا ، وحاولت ان تتملص ، لكن « جان » قبلتها وقالت تطمئنها : « لاتخافى ياعزيزتى ، ونبئينى باسمه • أعرف انك كنت ضعيفة ، ولكنك لست أول من يحدث لها هذا ، واذا تزوجك والد طفلك فسيغدو كل شىء نسيا منسيا • ونستطيع اذ ذاك أن نستخدمه لدينا فيبقى معك دائما »

وبدا كما لو كانت كلمات « جان » تزيد من عذاب «روزالى»، فضاعفت محاولاتها للتملص ، لكن « جان » استطردت قائلة : **« اننى أعرف شعورك ، وليس ثمة من يفوقنى عطفا عليك •• وانى لأدرك مدى خجلك ، ولكنك ترين اننى لست غاضبة**

منك • انني أرى من دموعك ان والد الطفل يعتزم هجرك ، لكنني سأمنعه من ذلك • سيبحث عنه « جوليان » وسنجبره على الزواج منك ! ولما كان سيعمل فى خدمتنا ، فسنحرص على أن نتأكد من اسعاده اياك »

واستطاعت « روزالى » أن تنتزع يديها من سيدتها ، وأن تجرى هاربة من الحجرة كالمجنونة •• وفى ذلك المساء ، قالت جان لجوليان : « لقد حاولت بكل وسيلة أن أحمل روزالى على أن تصارحنى باسم والد طفلها ، لكنى لم أوفق • فلتحاول أن تعرفه ، حتى نجبره على أن يتزوج منها !

فالتفت اليها « جوليان » غاضبا ، وقال : « لن أسمع مزيدا عن هذه المسألة • لقد أصررت على أن تستبقيها ، فلتبق ، ولكن ، دعينى بعيدا عن الامر كله »

وكانت طباعه قد ساءت منذ مولد طفل « روزالى » ، فاذا به دائم الانفعال ، لا يتحدث الى « جان » الا ويرفع صوته دون ماداع ! أما هى ، فكانت على العكس ، تحدثه فى لطف ، وتحاول بكل وسيلة أن تتفادى الشجار والجـــدل • وكثيرا ماكانت تبكى حتى يستولى عليها النعاس • على أنه رغم انفعاله المستمر وسوء طباعه ، عاود مسلكه القديم ، فصار شديد الحفاوة بزوجته ، لا تكاد تمر ثلاثة أيام دون أن يزورها قبل أن تنام • ونتيجة لمسلكه اللطيف عاود « جان » شىء من الاحساس بالسعادة ، وأفعمت نفسها بآمال جديدة ، وان ظلت تتعذب فى بعض الاحيان دون أن تضج بالشكوى ••

واستردت « روزالى » صحتها تماما ، فبدت أكثر اشراقا من ذى قبل ، وان ظلت تبدو فى عينيها نظرة خائفة ، كأن ثمة رعبا خفيا يلاحقها ! وحاولت « جان » مرتين أن تسألها عما بها ، لكن « روزالى » استطاعت فى المرتين أن تروغ منها

وساء الجو ، حتى أن أحدا لم يكن يجرؤ للخروج ، حيوانا كان أو انسانا •• وبدت البيوت الريفية كئيبة خلف ستار

الاشجار التى اكتست تماما بالجليد .. لم يكن ثمة ماينم عن مظاهر الحياة ،سوى المداخن التى كان ينبعث منها الدخان.. وأخذت « جان » ترتقب الربيع فى لهفة ، وهى تعزو توعكها بين الحين والآخر لقسوة الجو . وكانت فى بعض الاحيان تعجز عن تناول شىء من الطعام ، لفرط تقززها من كافة ألوانه بلا استثناء ، ولو انها فى أحيان أخرى كانت تقبل عليه فى نهم . وكانت فى أوقات كثيرة تحس بغثيان ، فيسرع نبضها.. ونتيجة لكل ذلك أفلت منها زمام أعصابها ، فأضحت فريسة لانفعال مستمر .

وذات ليلة قارسة ، نهضت « جان » عن المائدة تشكو من البرد الذى كان قاسيا فى الحجرة – من فرط اسراف زوجها فى الاقتصاد من الوقود ! – **فتبعها « جوليان » الى مخدعها ، وقال لها وهو يفرك يديه : « هذه ليلة يحلو فيها العناق .. أليس كذلك ياصغيرتى ؟ » .. وضحك من أعماقه ، تلك الضحكة الهانئة التى كانت تنطلق منه فى الماضى ، فطوقت « جان » عنقه وقبلته . على أنها أحست بشقوة ، وبانفعال غريب دفعها الى أن تهمس له وشفتاها ملتصقتان بشفتيه ، بأنها تؤثر أن تنفرد وحدها فى فراشها ! وشرحت له ، فى كلمات ، ماكان يخالجها .. وروت له آمالها ومخاوفها .. ثم أردفت : « لا تبتئس ياحبيبى ، فلسوف تتحسن حالى غدا، كما آمل »**

فأجاب جوليان : « ليكن ماتقولين .. اذا كنت مريضة ، فخير لك أن تعنى بنفسك »

وأوت الى فراشها مبكرة ، فأرسل « جوليان » خادما يذكى النارفى المدفأة بمخدعه ، وكان هذا تصرفا غريبا منه .. ولما قيل له أن النار تأججت ، قبل جبين زوجته ، وانصرف الى غرفته . .

وكانت موجة من الزمهرير تملأ البيت . وظلت « جان »

فى سريرها ترتجف ، دون أن يسعفها الدفء ، حتى لقد نهضت مرتين تغذى نار المدفأة بالوقود ، وتلقى على جسمها أكواما من الثياب ، ولكن دون جدوى .. وأخذت أسنانها تصطك ، وقلبها يخفق فى عنف ، حتى أحست به يكاد يكف عن الوجيب . وشعرت بشىء رهيب يجثم على أنفاسها ، ويكاد يزهق روحها لفرط حرمانها من الهواء !.. وجمدت أطرافها من البرد ، واستولى عليها ألم فظيع . قط لم يسبق لها أن شعرت بذلك ، فجال بخاطرها انها تحتضر .. وجهدت حتى بلغت الجرس ، فضغطت عليه تدعو « روزالى » . وانتظرت، بيد انها لم تتلق جوابا .. وعاودت دق الجرس مرارا ، دون أن توافيها « روزالى » ! لا بد أنها كانت نائمة .. مستغرقة فى ذلك النوم الذى لا يعكره شىء .. واذ أحست «جان» انها ستفقد وعيها ، هرعت تصعد السلم حافية القدمين ، حتى اذا بلغت الطابق العلوى ، وجدت باب « روزالى » مفتوحا ، فراحت تناديها .. لكنها لم تتلق جوابا . وولجت الغرفة ، وسعت الى السرير فراحت تتحسسه بيديها .. ولكنها ألفته خاليا ، باردا ، كأنما لم يمسسه جسد .. وهتفت لنفسها مشدوهة : « أتخرج التعسة فى مثل هذا الجو ؟!» .. وعاد قلبها يخفق فى عنف قاس ، ودار رأسها ، وتخاذلت ساقاها تحتها ، ثم هبطت ثانية وهى تعتزم أن توقظ « جوليان » ، فقد اقتنعت تماما بأنها موشكة على الموت ، فلم تعد لها من رغبة سوى أن تراه قبل أن تفقد حواسها .. وولجت غرفته .. وعلى ضوء الشمعة الباهت ، رأت « روزالى » راقدة الى جوار زوجها !.. فأرسلت صرخة هائلة ، أيقظت الاثنين مذعورين .. ثم وقفت تحملق فيهما لحظة ، وفجأة هرعت عائدة الى غرفتها .. وناداها « جوليان » ، فلما سمعت صوته ، غشيها فزع رهيب .. كيف يمكنها أن تصغى اليه ؟ .. كيف تقوى على النظر فى عينيه وهو يسعى الى التغرير بها ؟ .. لا ، لن تقوى .. وبثت

فيها الفكرة قوة جديدة ، فازدادت سرعة فى جريها وهى تهبط السلم حافية ، لايستر جسدها سوى ثوب النوم ٠٠ وقد سيطرت عليها رغبة فى الفرار من كل شىء ، وعدم سماع شىء ، أو معرفة شىء !٠٠ حتى اذا بلغت أسفل السلم ، جلست على الدرجة الاخيرة ، مضطربة الفكر ، مخدرة الجسم ٠٠ وكان « جوليان » قد ارتدى ثيابه فى عجلة ، فلما اقترب منها هابطا ، نهضت وعادت تجرى من جديد ، فصاح :« اسمعى ياجان ! » ٠٠ بيد أن « جان » واصلت جريها ، غير ملقية سمعها اليه ، رافضة أن تدعه يلمسها ! ٠٠ جرت الى غرفة المائدة ، فلم تجد مخبأ لها أفضل من أسفل المائدة ٠٠ حتى أقبل « جوليان » وراءها ، حاملا المصباح فوق رأسه ، مناديا اياها ٠٠ فانفلتت منه الى المطبخ ، وراحت تجرى فيه كمن وقع فى شرك ، وهى تبحث عن منفذ ٠ حتى اذا أوشك زوجها أن يقتنصها ، فتحت باب الحديقة فى عجلة ، وفرت الى أحضان الليل ٠٠ فاجتازت الحديقة وساقاها تغوصان فى الثلوج حتى ركبتيها ، وعبرت الخندق الى الارض المغطاة بالسماد ، وهى لا تكاد تحس بردا ، رغم انه لم تكن تكسو جسدها ثياب تذكر ٠ بل ان اتصال قدميها بالجليد القارس بعث فيها قوة جديدة على مواصلة الفرار ٠ آلفرار الذى لم يكن لها هم أو هدف سواه !

★ ★ ★

◆ **ولم** تكن الليلة مقمرة ، وان راحت النجوم المتألقة فى السماء الصحوة الباردة ترسل ضوءا ينير لها طريقها ، ويساعدها فى فرارها فى سكون الليل ٠٠ وضاعفت سرعتها ، ممسكة أنفاسها ، لاترى أو تحس شيئا ٠٠ حتى بلغت فجأة حافة التلال الجيرية ، فتوقفت بحركة غريزية ، وجلست على طرف الحافة ، معتمدة رأسها بين راحتيها ، وشعرها يتطاير فى الهواء ، وقد خلا كيانها من كل فكرة أو احساس !

وظلت فى هذا الوضع طويلا ‥ حتى غشيتها فجأة رعشة قوية ، واذ ذاك ارتد اليها رشدها ، أكثر جلاء وحدة من ذى قبل ‥ **وراحت الرؤى تمر أمام عينيها : الرحلة الاولى مع « جوليان » فى قارب الاب « لاستيك » ‥ حديثهما الملىء بالتوافه ‥ انبثاق الحب الذى تولاها نحوه ‥ ثم تدشين المركب ‥ بل انها أوغلت فى الذكريات الى يوم وصولها الى قصر « الحور » ‥ والآن ‥ ، انقضى كل شىء !‥ تحطمت حياتها ! ‥ لم تعد ثمة بهجة مدخرة لها ‥ لم يعد سوى العذاب الذى يثيره خداع جوليان ‥ لم يعد ينتظرها سوى الحزن الأبدى !‥ لخير لها ان تموت ، فتستريح من كل شىء !**

وفجأة ، تردد صوت جوليان فى هواء الليل الساكن : « هاهنا آثار قدمين ‥ اسرعا ‥ اسرعا ‥ فى هذا الاتجاه ! »

أواه ، انها لاتقوى ‥ لاتريد أن تراه ثانية ‥ وكان البحر المترامى يهدر فى أسفل التل ، والامواج تضرب الشاطىء وكأنها تشير اليها أن تعالى !‥ ووقفت تهم بالوثوب ،والكلمة الاخيرة بين الحياة والموت على شفتيها ‥ تلك الكلمة العذبة التى يغمغم بها الجندى الشاب وهو يلفظ آخر أنفاسه وسط أصداء المعركة : « أماه ! »

وفى تلك اللحظة ، تمثلت لعينيها أمها دامعة ٠٠ وخيل اليها انها ترى اباها راكعا الى جوار جثتها ٠٠ وعاشت فى تلك اللحظة الأليمة ، فى الحزن والقنوط اللذين سيكونان من نصيب أبويها اذا فقداها ، فارتمت على الجليد مسلوبة القوى ، حتى اذا جاء « جوليان » يتبعه «سيمون» و «ماريوس»، فرفعوها عن شفا الحافة ، لم تقاوم ، بل تركتهم يفعلون بها مايشاءون ! ٠٠ وأحست بهم يحملونها ويسلمونها الى السرير ، ويدلكونها بقطع ساخنة من القماش ، ثم ٠٠ لم تعد تعى شيئا!

وأعقب ذلك كابوس طويل ! ٠٠ أتراه كان أضغاث أحلام ؟ ٠٠ لقد خيل اليها انها فى غرفتها وسريرها ، فى وضح النهار ، لكنها لم تكن تقوى على النهوض ٠٠ وحيرها السبب

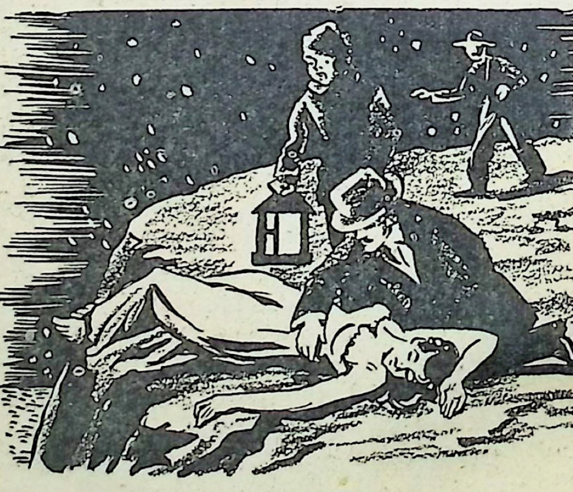

فى ذلك ٠٠ وخالت انها سمعت ضجة واهنة ، فتطلعت واذا بها ترى فأرا اسمر صغيرا يمشى على فراشها ٠٠ وأعقبه ثان، فثالث ٠٠ تسعى اليها ! ٠٠ ولم تشعر بخوف ، بل ودت لو تمسكها ، دون أن تقوى ٠٠ ثم أقبل على الجانبين عشرة ٠٠ فمائة ٠٠ فألف ٠٠ تكاد تحس بهم يصعدون عليها٠٠وجاهدت لتمسك واحدا منها ، فلم تستطع ٠٠ وصرخت ، وودت لو تجرى ، فخيل اليها أن ثمة من يمسك بها ، وان لم تر أحدا ٠٠ ولم تدر كم انقضى من الوقت وهى فى هذه الحال !

واستيقظت أخيرا ، ففتحت عينيها فى بطء ، ولم تدهش اذ رأت أمها تجلس بالقرب منها ٠ والى جوار أمها رجل ضخم لم تره قط من قبل ٠ وكان الرجل يقول : « انظرى ٠٠ هاهى قد أفاقت » ، فانفجرت أمها باكية ٠ وعاد الرجل يقول لها : « اهدئى ياسيدتى ٠٠ أتوسل اليك ٠٠ أقسم لك انها قد تجاوزت الخطر ٠ ولكن حذار من أن تحملوها على الكلام ٠٠ وفوق كل شىء ٠٠ دعوها تستغرق فى النوم »

وبدا للمريضة أنها ظلت طويلا مستلقية فى شبه اغماء ٠٠ وانها كانت عاجزة عن التفكير ٠٠ بل لم تكن راغبة فى التفكير ٠٠ وأشرقت فى ذهنها صورة باهتة للحقيقة ، فغشيها خوف من أن تواجه الواقع ٠ ٠

★ ★ ★

◆ **وعندما** استيقظت ذات صباح ، فوقعت عينـــاها على « جوليان » يجلس بالقرب من سريرها ، تذكرت فجأة كل شىء ونهش فؤادها ألم فظيع ٠٠ وتملكتها مرة أخرى الرغبة فى الفرار ، فألقت عنها أغطية الفراش ، وقفزت ٠ لكن ساقيها رفضتا أن تحملاها ٠ وخف اليها « جوليان » ، فصرخت وتملصت منه فى خوف قاتل من أن يمسها ! وهرعت اليها الخالة « ليزون » وأرملة « دنتو » ، يتبعهما أبوها البارون ،

وأمهـــا ، التى كانت تلهث ، وعلى أساريرها أمارات الألم الممض . وأعادوها الى السرير ، فأغلقت عينيها فى الحال ، متكلفة النوم .. لم تكن راغبة فى الكلام ، وانما كانت ترجو أن تفكر فى هدوء ..

ولازمت أمها وخالتها ليزون جانبى فراشها ، وراحتـــا تسألانها فى لهفة : « أتسمعيننا ياجان ؟ » .. لكنها لم تجب ، بل ظلت راقدة وكأنها لا تسمع . .

وأقبل المساء ، فجاءت الممرضة تجلس الى جوار الفراش .. وشربت « جان » فى صمت ماقدمته اليها الممرضة ، ثم رقدت ثانية .. **لكنها لم تنم ، بل راحت تفـكر .. حاولت أن تستحضر عقلها ، وأن تربط بين الامور التى كانت تخالها قد نسيت .. وانقشع الضباب رويدا عن ذاكرتها ، فعاودتهـا الذكريات جميعا ، وأخذت تتشبث بكل منها . كانت أمهـــا وأبوها والخالة ليزون هنا ، اذن فلا بد انها مريضة .. أتراهم يعرفون شيئا ؟ .. هل أنبأهم « جوليان » ؟ .. و « روزالى » ، أين هى ؟ .. ماذا تراها فاعلة ؟.. وما الذى تملك أن تفعله ؟**

.. وواتتها فكرة مباغتة : خليق بها أن تعود الى (روان) لتعيش مع أبيها وأمها كما كان العهد من قبل .. أى كما لو كانت أرملة ! ـ هذا غاية مافى الأمر ! ـ وأصغت فى استيعاب لكل ماكان يقال حولها ، وهى تفهمه تماما ، وان كانت تتصنع عدم الاكتراث .. وقد ابتهجت ـ فى سرها ـ لعودة وعيها وادراكها ، وأخذت تترقب فرصتها بصبر ..

ووجدت نفسها أخيرا على انفراد مع أمها فى تلك الليلة ، فهمست : « يا أمى العزيزة ! » .. ولاح لها صوتها متغيراً ، حتى كادت تنكره !.. بينما هز الفرح البارونة ، فاحتوت ابنتها بين ذراعيها وتساءلت : « يا ابنتى الحبيبة !.. ياعزيزتى الصغيرة جان ! .. أتعرفيننى حقا ؟ »

ـ أجل يا أمى الحبيبة ، ولكن .. لايجب أن تبكى . لدى

الكثير احدثك عنه . هل انبأكم « جوليـــان » لماذا فررت فى تلك الليلة ؟

ـ لا يا حبيبتى . .

ـ حسنا ، سأنبئك أنا : لأننى وجدت «روزالى» فى مخدعه !

وخيل للبارونة ان الهذيان عاود ابنتها ، فحاولت أن تهدئها قائلة : « كفى ياصغيرتى .. انك متعبة .. حاولى أن تنامى يا حبيبتى ! »

ولكن « جان » استطردت فى الحاح : « **انك تخالينني أهذى يا أمى العزيزة ، ولكنني لا أهذى .. اننى مكتملة العقل .. لست أهرف كما كنت أفعل وأنا صريعة الحمى .. لقد شعرت ليلة فرارى بمرض شديد ، فذهبت الى مخدعه لأوقظه ، ولكن « روزالى » كانت هناك ، معه .. ففقدت عقلى ، وانطلقت فوق الجليد لألقى بنفسي من فوق التل** »

أجابت البارونة : « أجل ياعزيزتى .. كانت وطأة المرض قاسية عليك »

ـ أؤكد لك يا أمى العزيزة ، أننى ألفيت « روزالى » مع « جوليان » ، ولن أعيش معه بعد الآن .. ستأخذاننى الى (روان) .. أليس كذلك ؟

وخشيت البارونة أن تعارضها ، فقد أوصاها الطبيب بأن تكون شديدة الحذر . فأجابت : « بلى يا عزيزتى »

غير أن جان فقدت صبرها ، فقالت : «**أرى انك لاتصدقيننى يا أمى العزيزة .. احضرى لى ابى ، فلسوف يفهم** »

ونهضت البارونة فى عناء ، ومضت تجر قدميها بألم وهى تعتمد على عصا فى كل من يديها .. ثم عادت بعد دقائق قليلة، مستندة الى ذراع زوجها ، فجلسا الى جوار السرير . وطفقت « جان » تروى لهما كل شىء : روت ـ فى تؤدة ، وجلاء ، ونبرات واضحة ـ ماكان من طباع « جوليان » ، وبخله ، وأخيرا خيانته !

ترقب مع باعة الصحف فى أواخر مايو الحالى

الجزء الثانى والأخير

من هذه الترجمة الدقيقة الكاملة لقصة :

حياة امرأة

يصور لك – فى ١٦٠ صفحة أخرى – المرحلة الثانية من حياة « جان دى فود » .. الزوجة التى أنضجتها التجارب ، وعلمتها كيف تجابه خيانات زوجها « جوليان » المتكررة ! .. هل تنتقم منه ؟ .. وباى سلاح ؟ .. أبسلاح الفتاة الساذجة التى نشأت فى الدير ؟ .. ام بسلاح المراة الناضجة ، الواعية ، التى انستها المحن سذاجة «الدير» .. وتربية «الدير» ؟

انها قصة كل زوجة لزوج خائن ، مخادع ، انانى ، جشع .. وكل أم تنشد العزاء عن حظها التعس فى الزواج ، بالتماس العوض فى ابنها .. وحيدها الذى تضع فيه كل آمالها ! .. ترى هل يحقق هذه الآمال ؟

اقرأ تفاصيل هذه « الدراما » الانسانية ، الواقعية ، المقتطعة من صميم الحياة

فى الجزء الثانى والاخير من

حياة امرأة

مع باعة الصحف في أواخر مايو الحالى

عندما تفرغ منه ، ستعرف لماذا أطلق تولستوى على هذه القصة وصف «أعظم قصة فرنسية بعد (البؤساء) !»

ملحوظة : تنزع هذه الورقة عند تجليد الجزءين فى مجلد واحد ..

تولستوى
أناتول فرانس
شارل ديكنز
جان وولفجانج جيته
ستيفان زفايج
جان جاك روسو
دستويفسكى
بول بورجيه
والتر سكوت
فيكتور هوجو
أوسكار وايلد
مكسيم جوركى
سومرست موم
أندريه موروا
البرتو مورافيا
.. وعشرات غيرهم .. من أعظم كتاب العالم ، القدامى والمحدثين ..

تقرأ الترجمة الكاملة لانتاجهم الادبى الخالد الرفيع فى الاعداد القادمة من :

مطبوعات كتابى

السلسلة العربية الوحيدة من نوعها ، التى تقدم لك الترجمة الكاملة لأمهات الكتب العالمية ، بأرشق أسلوب .. أسلوب «كتابى» وكفى !

مطابع دار النشر للجامعات المصرية
٤١ شارع شريف ، القاهرة

القصّة التى شرّحت قلب المرأة !

.. ببراعة أذهلت معاصريه أنفسهم، صوّر "موباسان" فى هذه القصة، بقلمه الجرئ، خلجات الظمأ النفسى، والجوع الحسّى، والأمل وخيبة الأمل، فى قلب فتاة غريرة ألقت بها الأقدار فى عالم "البالغين" القاسى، الذى لا يرحم .. فإذا نحن نرى - كما فى شريط سينمائى - حياة بطلة القصة "جين دى فود" منذ غادرت دير الساكريكير، وتملأ خيالها أحلام العذارى وأوهام المراهقات .. ثم وهى تواجه ليلة عرسها شبح الرغبة المجنونة من زوج أنانى !.. ثم وهى تتابع حياتها كزوجة، وأم، فتشهد - مكتوفة اليدين - الخيانات المتوالية من جانب الرجل الذى أحبته !.. إنها أسرار قلب المرأة قد جرؤ على أن يكشفها للملأ - عارية ! - قلم كاتب عبقرى جردها من ثياب الرياء والتظاهر الكاذب، ليعرضها على حقيقتها بصورة قد تصدم الرجال، لكنها ستصدم النساء صدمة أشد، لأنهن سيطالعن فيها صورة نفوسهن، كما يطالعن صورة أجسامهن فى المرآة !

مطبوعات
كتابى
يصدرها : حلمى مراد

ن المكتبات ٥٨١٤٩